مدينة مرسية

موطن الشيخ الزاهد العارف بالله القطب الأكبر

« أبو العباس المرسى »

(محاضرة ألقيت بجمعية الآثار بالاسكندرية فى ١٣ مارس ١٩٦٧)

للدكتور السيد عبد العزيز سالم

سيداتى سادتى :

عندما تفضل زميلى الدكتور داود عبده داود بدعوتى للحديث فى جمعيتكم الموقرة عن موضوع أختاره ، له صلة بحياة قطب الاسكندرية الأعظم ، وعلمها الأكبر الذى أصبح اسمه يقترن باسمها ، سيدى أبى العباس المرسى ، وذلك بمناسبة احتفال مدينة الاسكندرية بذكرى مرور سبعمائة عام على وفاته ، لم أتردد فى أن أسهم بحديث الليلة فى هذه الذكرى العزيزة ، وان كان ذلك قد جاء فى ختام هذه الاحتفالات . ولما كانت حياة شيخنا أبى العباس المرسى وآراؤه هى محور العدد الأعظم من الدراسات والبحوث التى صدرت حديثاً عنه ، فقد رأيت أن يكون موضوع حديثنا الليلة التعريف بمدينة مرسية الإسلامية ودراسة تاريخها الحافل بالأحداث مع الاهتمام بتصوير الفترة التى سبقت رحيل أسرة أبى العباس نهائياً من أرض مرسية ، واختياره لثغر الاسكندرية المحروس منزلا وموطناً .

والشيخ الزاهد أبو العباس المرسى هو أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الخزرجى الأنصارى المرسى [١] قطب زمانه ، ورأس أصحاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، ولد فى مدينة مرسية إحدى كبار مدن شرق الأندلس فى سنة ٦١٦ هـ [٢] (١٢١٩ م) ، وفى هذه المدينة التى كانت تعرف بمصر الأندلس قضى أبو العباس طفولته وصباه ، ثم قدر له أن يرحل عنها مع أسرته نهائياً فى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م)

وقد بلغ من العمر أربعاً وعشرين سنة ، عندما اشتدت حركة الاسترداد المسيحى فى إسبانيا ، وقبل أن يشهد سقوط مرسية فى أيدى القشتاليين الذى تم بعد عام واحد من رحيله عنها .

وفقد أبو العباس والديه اللذين ماتا غريقـين فى البحر أمام ساحل بونة من إفريقية ، فلما وصل إلى مدينة تونس قدر له أن يلتقى بأب روحى كان له أعظم الأثر فى حياته المستقبلة ، هو أستاذه القطب الصوفى الكبير الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، الذى اصطفاه دون غيره حفياً وتلميذاً ثم خليفة من بعده ، وقد لازمه أبو العباس ورافقه فى رحلته إلى الاسكندرية فى سنة ٦٤٢ هـ فى عصر السلطان الملك الكامل محمد بن العادل بن أيوب . ولم يكن غريباً أن يختار الشيخان هذا الثغر السكندرى دون غيره من مدن المغرب ومصر منزلا ، فطالما اجتذبت الاسكندرية رجال العلم من أهل الأندلس بوجه خاص منذ أن اشتدت حركة الاسترداد المسيحى فى اسبانيا الاسلامية بعد سقوط طليطلة فى يد الفونسو ملك قشتالة فى سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) ، وإليها كان الأتقياء والمجاهدون المغاربة يقبلون وينزلون ، باعتبارها دار رباط [٣] ومركزاً رئيسياً للجهاد ، ولعل هؤلاء المهاجرين الأندلسيين والمغاربة كانوا يؤثرون استيطانها والنزول فيها إما لتألق الحياة العلميـة فى سمائها ونشاط الحركة الصوفية بوجه خاص ، أو لتأصل التقاليد الأندلسية المغربية فى الاسكندرية منذ قيام الدولة الفاطمية ، أو لأنها كانت مرحلة متوسطة من مراحل الطريق إلى الحج بين المغرب والأندلس وبين الحجاز ، أو لوجود دار المغاربة ومدرسـة أقيمت فى عصر صلاح الدين المرابطة المغاربة الذين لم يترددوا فى الاشاركة بأوفى نصيب فى الجهاد ضد الصليبيين فى الشام ومصر إلى جانب المصريين والشاميين [٤] .

لكل هذه العوامل مجتمعة ، فلقد نزل الاسكندرية واستوطنها عدد كبير من شـيوخ الأندلس والمغرب نخص بالذكر منهم : العالم أبا الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن نادر الميورقى ، وأبا عبد الله محمـد بن مسلم بن محمد القرشى المازرى الصقلى [٥] ، وأبا بكر محمد الطرطوشى المعروف بابن أبى رندقة [٦] ، وعبد الرحمن ابن أبى بكر بن عتيق بن خلف الصقلى المعروف بابن الفحام ، وكان من شيوخ القراء

بالاسكندرية [٧] ، وأبا القاسم بن مخلوف المغربى الاسكندرى ، أحد كبار أئمة المالكية (ت ٥٣٣ هـ) [٨] ، وأبا العباس أحمد بن عمر بن ابراهيم الأنصارى القرطبي الفقيه المحدث (ت ٥٥٦ هـ) [٩] ، وأبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن الجرح التلمسانى نزيل الاسكندرية (ت ٦٥٦ هـ) وكان من صلحاء العلماء فى الحديث [١٠] ، والحسن بن خلف بن عبد الله بن بليمة القيروانى نزيل الاسكندرية (ت ٥١٤هـ) وكان عالماً فى القراءات [١١] ، واليسع بن حزم الغافقى الأندلسى الجيانى نزيل الاسكندرية فى عصر صلاح الدين (ت ٥٧٥ هـ) [١٢] ، والقاسم بن خيرة بن خلف بن أحمد الشاطبي المقرى (ت ٥٥٥ هـ) [١٣] ، وأبا عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المعافرى البلنسى المقرىء [١٤] ، وأبا الحسن على بن محمد بن يوسف بن عفيفى الخزرجى الساعدى الغرناطى [١٥] ، وأبا عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة المرسى [١٦] (ت ٥٥٥ هـ) ، ونختتم هذه الأمثلة بالفقيه الزاهد نزيل الاسكندرية أبى عبد الله بن محمد بن سليمان المعافرى الشاطبي (ت ٦٧٢ هـ) [١٧] . وقد ترك أثنان من هؤلاء الوافدين اسميهما على حيين من أحياء الاسكندرية الحاضرة هما حى الطرطوشى نسبة إلى ضريح الطرطوشى المقام بالقرب من الباب الأخضر [١٨] ، وحى الشاطبي نسبة إلى رباط سوار الذى كان يقع بظاهر الاسكندرية من الجهة الشمالية الشرقية حيث منطقة الشاطبي حالياً [١٩] .

* * *

أما مدينة مرسية التى ينسب إليها شيخنا الكبير أبو العباس المرسى ، موضوع حديث الليلة ، والتى كانت حاضرة شرق الأندلس فى العصر الاسلامى ، فهى مدينة إسلامية محدثة ، أى أقيمت فى العصر الاسلامى ، أسسها الأمير الأموى عبد الرحمن الأوسط فى ربيع الأول من سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) لتقوم مقام مدينة إله Ello (أو إيه حسب ما سماها به العذرى) [٢٠] الحاضرة القديمة لكورة تدمير ، التى أمر عبد الرحمن عامله جابر بن لبيد بتهديمها بسبب الفتنة التى قامت فيها بين القيسية واليمنية والتى استمرت قائمة حتى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨م) .
وكورة تدمير المذكورة إنما سميت كذلك نسبة الى تدمير بن عبدوش

القوطى Teodomiro b. Ergobado الذى كان يتولى إمارتها من قبل ملك القوط (٢١) ، بخلاف ما فسره بعض الباحثين بأن عبد الرحمن الأوسط سماها تدمير باسم تدمر الشام (٢٢) ، إذ أن تدمير كان يطلق على إقليم مرسية عند الفتح الاسلامى للأندلس فى سنة ٩١ هـ ، بينما لم يطلق اسم مرسية على المدينة التى حلت محل إله إلا فى عهد عبد الرحمن الأوسط . وكانت كورة تدمير تضم فى زمن الفتح الاسلامى عدداً من المدن منها : أوريولة Orihuela ، وبلتنة Baltana ، ولقنت Alicante ، وموله Mula ، وبلانة Villena ، ولورقة Lorca ، وإله Ello (٢٣).

وقصة فتح المسلمين لكورة تدمير فى ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير بعد سنة ٩٤ هـ (٢٤) فيما روته المصادر العربية ، قصة شيقة تتضمن من عناصر المفاجأة والتشويق ما جعلها أقرب إلى الرواية القصصية ، فلقد سار عبد العزيز بقواته إلى فحص أوريولة ، وهزم تدمير وأصحابه فى قرطاجنة ، فرضة أوريولة ، ووضع المسلمون فيهم السيف ، ونجا تدمير مع رهط من أصحابه وتحصنوا بأوريولة ، وكانت هذه المدينة يومئذ غاية فى الحصانة والمنعة ، وكان تدمير مجرباً بصيراً ذا هيبة ، فلما رأى قلة أصحابه ، أمر النساء فنشرن شعورهن وأمسكن القصب بأيديهن وظهرن على ممشى السور فى زى القتال متشبهات بالرجال ، فكره المسلمون مراسة لكثرة ما عاينوه على السور ، وآثروا أن يهادنوه ، ففاوضهم على خير ما اشتهاه من شروط ، وعندما دخل المسلمون المدينة لم يلقوا فيها جيشاً للدفاع كما كانوا يعتقدون ، فندموا على تسرعهم فى عقد الصلح ، ولكنهم نفذوا شروط الصلح التى وضعها تدمير (٢٥).

وعندما اشتد الصراع فى الأندلس بين العصبيتين القيسية واليمنية نتيجة للحروب الأهلية التى قامت بين البلديين فى الأندلس وجند الشام ومصر الوافدين اليها ، وأمر الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك بتولية أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى على الأندلس ليضع حداً لهذه الفتنة ، نظر أبو الخطار فى إبعاد جند الشام ومصر عن قرطبة ، وتوزيعهم على كور الأندلس ليقضى على عوامل الاضطراب ،

وراعى فى هذا التوزيع تشابه الكور التى ينزلون فيها مع مواطنهم الأصلية ، فأنزل جند دمشق بالبيرة للتشابه الكبير بين إلبيرة ودمشق ، وسمى إلبيرة دمشق ، وأنزل جند الأردن بكورة رية ومالقه وسماها الأردن ، وجند فلسطين بشذونة وسماها فلسطين ، وجند حمص بإشبيلية وسماها حمص ، وجند قنسرين بجيان وسماها قنسرين (٢٦) . أما جند مصر فقد اختار لهم كورة تدمير ، فسميت تدمير منذ ذلك الحين بمصر لكثرة شبهها بها ، ولأن لها أرضاً « يسيح عليها نهر فى وقت مخصوص من السنة ، ثم ينضب عنها ، فتزرع كما تزرع أرض مصر » (٢٧) ، ونهر تدمير المعروف بالنهر الأبيض أو وادى شقورة فسيم الوادى الكبير يتفرع قرب مصبه إلى دلتا ذات شعبتين أو جدولين ، كدلتا مصر على نحو مصغر ، أحدهما يسقى قبلى مرسية ، والثانى يسقى جوفيها (٢٨) .

وأصبحت مرسية منذ تولى جابر بن مالك بن لبيد تخطيطها وإنشاءها فى زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط منزلا للولاية ، وقاعدة لكورة تدمير ، وداراً ومقراً للقواد (٢٩) فى ولاية كل من الأميرين عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد ، فلما ضعفت السلطة المركزية بقرطبة فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ، واشتعلت نار الثورة فى سائر أنحاء الأندلس ، استقل ديسم بن اسحاق المولد بمرسية ولورقة وما يليهما من كورة تدمير (٣٠) ، ولم تدخل مرسية فى فلك الامارة بقرطبة إلا بعد أن أرسل الأمير عبد الرحمن بن محمد الذى تلقب فيما بعد بالناصر لدين الله ، وزيره اسحاق بن محمد القرشى على رأس جيش كثيف فى سنة ٣٠٤ هـ ، فانتزعها من الثوار ، كما افتتح حصن أوريولة قاعدة كورة تدمير وأمنع معاقلها وأقدمها (٣١) ، ثم استصلح القرشى أحوال أهل الكورة .

وازدهرت مرسية فى عصر الخلافة ، واتسع عمرانها وأصبحت فى عداد الحواضر الأندلسية الكبرى ، وكانت لها فرضتان أو مرسيان يطلان على البحر : أحدهما قرطاجنة الخلفاء وكان مرسى ترسو به السفن الكبيرة والصغيرة (٣٢) ، والآخر مرسى لقنت الذى يجوز منه التجار إلى إفريقية (٣٣) .

واتسعت مرسية ، وفاض عمرانها خارج أسوارها ، وأصبح لها ربض عامر

بالسكان تدور به الأسوار ، ويتصل بالمدينة عن طريق قنطرة من السفن ، وكان لتوافر مياهها أثر كبير فى كثرة بساتينها ، ووفرة فواكهها كالتين والكروم (٣٤) .
وظلت مرسية فى ازدهار مطرد حتى سقطت الدولة العامرية ، وأصبحت الخلافة محل أطماع الطامعين من أمراء المروانية ، وتمزقت وحدة الأندلس وقامت دويلات الطوائف ، فاختص رؤساء الصقالبة بشرق الأندلس ، فخضعت دانية وأعمالها لمجاهد العامرى ، وخضعت شاطبة لنبيل ، وبلنسية لمظفر ثم لمبارك ومظفر العامريين ، ثم المنصور أبى الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول بن المنصور محمد بن أبى عامر ، وطرطوشة للبيب العامرى ، والمرية لخيران . أما مرسية فكانت من نصيب واضل(٣٥) ، ولكنها لم تلبث أن أصبحت من نصيب خيران الفتى العامرى الذى كان يتولى حكم مدينة المرية منذ حجابة المنصور محمد بن أبى عامر(٣٦) . فاتخذ خيران المرية قاعدة لدولته ، ولم يلبث أن ضم إليه قاعدة أوريولة فى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٤ م)(٣٧) ، ولم يمض عامان على ذلك حتى انتزع مرسية من صاحبها واضل الفتى ، ونازع بذلك الموفق أبى الحسن مجاهد الفتى العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية . وأدى اصطدام خيران بمجاهد العامرى وانهزامه أمامه إلى أن يدعو بالامارة لحفيد من أحفاد المنصور بن أبى عامر هو أبو عامر محمد بن المظفر عبد الملك ، فتنازل خيران عن مرسية وأوريولة(٣٨) ، غير أن العلاقات بينهما لم تلبث أن تدهورت ، ففر خيران الى المرية فى ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) ، وتحرك من هناك إلى مرسية محارباً لمحمد بن المظفر ، فما زال به حتى أخرجه عنها فى ربيع الأول سنة ٤١٣ هـ (٣٩) (١٠٢٢ م) . وهكذا خضعت مرسية لخيران ، الذى ظل يقوم بحكمها من المرية حتى توفى فى جمادى الأولى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، فخلفه على إمارتها عميد الدولة أبو القاسم الفتى زهير العامرى ، وأصبحت مرسية خاضعة لزهير يحكمها من قصبة المرية . فلما قتل زهير فى معركة قامت بينه وبين باديس بن حبوس الصنهاجى صاحب غرناطة ، بقرية الفنت الواقعة على بعد أربعة أميال من غرناطة فى شوال سنة ٤٢٩ هـ (٤٠) (١٠٢٧ م) ، واتصل نبأ موته بأهل مرسية ضبطوا مدينتهم ، وأسندوا الرئاسة فيها إلى أبى بكر أحمد بن اسحق بن طاهر القيسى ، الذى ينتسب إلى بيت من أشرف

البيوتات العربية بمرسية وأرفعها ، ويرتفـــع نسبه إلى قيس عيلان (٤١) ، فاستقل بحكمها وإن كان فى الظاهر يعلن خضوعه للمنصور عبد العزيز صاحب بلنســـية .
وكان ابن طاهر محبوباً بين أهل مرسية ، محباً للثقافة ، مشجعاً للعلوم ، فلما توفى فى سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) خلفه على إمارتها ابنه أبو عبد الرحمن محمد بن احمد بن طاهر ، الذى خلع ولاءه للملك بلنســـية العـامرى نهائياً ، مستغلا فى ذلك الموقف الحرج الذى كانت تجتـازه هذه المملـكة عند توليه إمارة مرســـية (٤٢) ، ولـكن أبا عبد الرحمن لم يـكن يهمـل حساب ملوك الطوائف الآخرين ، وعلى الأخص المعتمد بن عبـاد ملك إشبيلية الطموح الذى حاول من قبـل أن يستولى على مرسية مستعيناً فى ذلك بريموندو بيرنجر الثانى صـاحب برشلونة (٤٣) وكان ابن طاهر من أهل العـلم والأدب ، انتجعه الشعراء وقصده الأدباء ، وكان ممن قصـــده الشاعر أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهرى(٤٤) فى أيام خموله ، الذى سيسعى إلى خلعه من سلطانه ، وكان ابن طاهر أميراً عادلا فى أحكامه ، فرضى أهـــل مرسية بحـكمه ، وأجمعوا على محبته ، عدا فئة حسدته على ما ناله من محبـة فى قلوب رعيته ، فخاطبوا المعتمد بن عباد الايقاع به . وذكر ابن الأبار نقـلا عن ابن قاسم فى تاريخه أن ابن عمار هو الذى زور للمعتمد أن أهل مرسية ، قد داخلوه وخاطبوه ، وأظهر لهم كتباً ذكر أنهم كتبوها إليه ، (٤٥) ، فوجه ابن عباد عسكراً من إشبيلية بقيـادة ابن عمار ، لغزو مرسية ، فلما وصل ابن عمار إلى قرطبة وكانت تابعـــة للمعتمد بن عباد ضم إلى عسكره خيالة قرطبـة . ثم تقدم إلى مرسية ، واجتاز فى طريقه إليهـا على حصن يقال له ، حصن بلج ، Vilche ، وضم إليه عامل هـذا الحصن واسمه عبـد الرحمن بن رشـــيق وقوده على عسكره ، ثم تمـكن ابن عمـار بمساعدة ابن رشـيق من انتزاع حصن مولة من بنى طاهر وكان هـذا الحصن من أهم حصـــون إمارة مرسية فمنه كانت تصـــل المؤمن والأقوات إلى الحاضرة . وما إن وضع إبن عمار يده على مولة حتى ولى عليها إبن رشيق ، وترك معه جـلة من الخيل وقفل عائداً إلى إشبيلية (٤٦) .

وما زال إبن رشيق يغادى مرســية ويراوحها بالغارات ، وقد برح بهـا تـكرر

الحصار ، وأمضها انقطاع المواد بانعزال مولة عنها (٤٧) ، ويداخل أهلها في عصيان ابن طاهر والخروج عليـه ، ويمنيهم في مقابل ذلك بالأماني الكبار ، حتى لان قيادهم ، ومالوا إلى الدخول في طاعة إبن عباد ، واتفق معهم على أن يفتحوا له أبواب مرسية عند قدومه إليهم من حصن مولة ، فلما وصل ابن رشيق إلى ظاهر مرسية قادماً من حصن مولة ، فتح له أهل مرسية أبوابها فدخل ابن رشيق في عسكره وأنصاره ، وتم اعتقاله لابن طاهر ، فأخرج من داره إلى السجن وقيل اعتقله في حصن منت أقوط (٤٨) (Monteagudo) وظل معتقلا بهذا الحصن إلى أن ورد كتاب المعتمد بإطلاق سراحه فلحق بأبي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية ، وقيل إن ابن طاهر نجح في الافلات من معتقله بإعانة ابن عبد العزيز المذكور وسعيه لتخليصه من سجنه (٤٩) .

ثم قدم ابن عمار إلى مرسية موفداً من المعتمد بن عباد ليصبح أميراً عليها ، غير أنه طمع في الانتزاء والانفصال عن إشبيلية ، وسولت له نفسه أن يستقل بحكم مرسية ، فقعد بها مقعد الرؤساء ، واعتبر نفسه نداً لابن عباد ، واستخف بأهل مرسية ، واستعمل المعاصي حتى أبغضه الناس (٥٠) . وذكر ابن بسام أنه استعمل أراذل عبيده وخساسهم على الحصون وأقطعهم الضياع ، واستغرق أثناء ولايته في الملذات ، فانتهز ابن رشيق فرصة انقطاعه إلى الشراب واللهو وأخذ يستبدل أولئك الأراذل ببني إخوته وأخـواته ، حتى إذا ما تم له ذلك ، أغرى الأجناد بطلب أرزاقهم من ابن عمار ، وأثار عليه الناس ، ثم انتهز فرصة خروج ابن عمار لتفقد بعض شـؤون مرسية وحصونها ، فوثب على مرسية الحاضرة ، واستولى عليها ، وامتنع بها ، ودعا فيها لابن عباد(٥١). أما ابن عمار فقد لجأ إلى أذفونش بن فرولند (أي الفونسو السادس ملك قشتالة) (٥٢) ، وكان ابن رشـيق قد استمال أذفونش بألطافه وهداياه ، وغيره على ابن عمار ، فأساء هذا استقباله (٥٣) ، وعندئذ ولى ابن عمار وجهه نحو سرقسطة ، فلحق بالمقتدر بالله بن هود صاحبها (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ)(٥٤) ثم وقع ابن عمار أخيراً في يد المعتمد فنكبه ، وقتله بيده (٥٥) .

وظل ابن رشيق يحكم مرسية باسم المعتمد ، ثم بدأ يتحرر تدريجياً من تبعيته له

«بعد أن تمكن المرابطون وجيوش الأندلس من الانتصار على جيوش الفونسو السادس فى موقعة الزلاقة (٥٦) ، وقد أخذ يتقرب إلى المرابطين ، حتى يعتضد بهم عندما يعلن خروجه على المعتمد ، وأحس المعتمد بما يضمره ابن رشيق فى نفسه فبادر بالاتصال بيوسف بن تاشفين ، وحثه على الجواز بجيوشه إلى الأندلس المرة الثانية لمحاصرة حصن لييط الذى كان القشتاليون يشنون منه الغارات فى أراضى المسلمين المجاورة لمرسية ، وعرض المعتمد على ابن تاشفين أن يحكم معه ماشاء من عمل فى مرسية وغيرها (٥٧) ، فلما أقبلت جيوش المرابطين للمساهمة فى حصار حصن لييط ، واجتمعت معها جيوش الطوائف ، استغل ملوك الطوائف هذه الفرصة ليشكو كل منهم زميله ليوسف بن تاشفين ، وعمد ابن رشيق إلى بذل الاموال والهدايا إلى أمراء المرابطين وقوادهم وعلى الاخص إلى الامير سير بن أبى بكر ، فأعطى « ابن رشيق الامان ، وبولغ له فى التأنيس ، حتى غره ذلك وانبسط له ، ر تاه على ابن عباد ، وأظهر معصيته والانحياش منه ، قائما فى ذلك بدعوة الامير ر مستندا إليه ، حتى أفضى ذلك به إلى أن أمر أن تكون الخطبة بمرسية على اسم أمير المسلمين (يقصد يوسف بن تاشفين) دون ابن عباد (٥٨) » .

وأغاظ هذا التصرف ابن عباد وأثاره عليه ، ولكنه لم يرض بالأمر الواقع ، اعمل على وصمه بتهمة التعاون مع النصارى ومساعدتهم ، تمهيدا لاستصدار فتوى ققهية بعزله واعتقاله ، ويعبر الأمير عبد الله الزيرى عن ذلك فى مذكراته بقوله : « والمعتمد فى هذا كله يرى من الامر مايغيظه ويكربه ، ويتقطع منه حسرات ، ـحق له فلم ينم عن القضية ، وأحكمها مع الفقهاء ، واحتج عليه بأحكام السنة ، وكان ن اصطنع على ذلك ابن القليعى (٥٩) .

وكان ابن تاشفين يراقب الخلاف القائم بين المعتمد وابن رشيق عن كثب ، وكان ى إمكانه أن ينصب نفسه حكما فى هذا النزاع فيميل إلى ابن رشيق وينـاصره على لمعتمد ، ولكنه آثر بعد إعمال الفكر أن يستجيب لمطالب ابن عباد ، فيؤيده فى ضيته مداراة له ، ولاحتياجه إليه فيما هو بسبيله ، « فتعسف على ابن رشيق فى الذى ظهر من الخلاف على صاحبه ، وقال له : ما كان يجب لك أن تقوم بدعوتى للقيام

على رئيسك ، فتوقع بيني وبينه الشحناء . وقال فى نفسه : لم يفعل ذلك ابن رشيق إيثارا لى ولا محبة لجهتى ، اكثر من اضطرام النار على صاحبه ، وإشغاله بى عن نفسه ، ولا سيما أن معونته للروم بلييط لم تخف على أحد ، يعتقد أن ببقائها يثبت فى مرسية ، فكان أبدا يميزهم ويقويهم بما يعجزون عنه ، إبقاء لرمقهم ، وخوفا من الداخلة عليه بفقدهم (٦٠) .

ولم ينتظر المعتمد حتى يتخذ ابن تاشفين قراره ، فبادر باستفتاء الفقهاء فى أمر ابن رشيق ، فاجتمع هؤلاء فى مجلس أفتوا فيه بخلعه وتسليمه للمعتمد ، وأيد ابن تاشفين قرار الفقهاء ودعا إلى تثقيفه وتسليمه إلى المعتمد ، الذى أمر باعتقاله فى إشبيلية وتقليد الراضى بن المعتمد واليا على مرسية مكان ابن رشيق (٦١) .

ولكن لم تطل تبعية مرسية لدولة المعتمد فما لبث ابن تاشفين أن انقلب على ملوك الطوائف ، فجاز إلى الأندلس للمرة الثالثة فى سنة ٤٨٣ هـ ، وهو ينوى فى هذه المرة القضاء على دويلات الطوائف ، وتوحيد كلمة الأندلس ، وتأليف جبهة مغربية أندلسية متحدة لمواجهة خطر النصرانية المتزايد . وبدأ يوسف بن تاشفين بنكبة الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، فعزله عن ملكه ، ونفاه إلى مكناسة بأرض المغرب ، ثم أتبعه بأخيه تميم صاحب مالقة ، فنفاه إلى السوس . وفى العام التالى سير أربعة جيوش مرابطية إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف الآخرين ، ومحاصرتهم فى قواعدهم ، وانتهى الأمر بإسقاط كل من المعتمد بن عبـــاد ملك إشبيلية ، والمتوكل على الله بن الأفطس ملك بطليوس مرشنترين وما يليها من إقليم استرامادورا غرب الأندلس ، كبيرى ملوك الطوائف ، فنفى المعتمد إلى أغمات بأرض السوس فى سنة ٤٨٤ هـ ، بينما قتل المتوكل وابناه أثناء توجههم أسرى إلى إشبيلية فى أخريات سنة ٤٨٨ هـ (٦٢) .

وكانت قوات القـــائد المرابطى الكبير محمد بن عائشة (٦٣) ، قد تمكنت من انتزاع مدينة مرسية ، فولى عليها ابن عائشة من قبله قائدا مرابطيا يقال له أبو عبدالله محمد بن الحاج (٦٤) ، ولكن مرسية لم تلبث أن تعرضت فى سنة ٤٨٤ هـ لغزوة

قام بهـــا البرهانس (أو البارهانش) (٦٥) ، بينما تمرضت شاطبة لحصار السيد القنبيطور el Cid el Campeador ، والمرية لحصار القـائد القشتالى غرسية خيـنث (٦٦) ، وقام أحد أساقفة الفرنجة ببناء حصن على ضفة البحر بالقرب من مرسية يقال له حصن سنشة أو شجنة (٦٧) . وأدت هذه الأحداث إلى خروج ابن عائشة بقـوات المرابطين من إشبيلية نحو مرسية ، ودارت بينهم وبين القشتاليين موقعة عنيفة انتهت بهزيمة القشتاليين ، وتمـكن ابن عائشة من استرداد مدينة مرسية ، فدخلها ، وخلع صاحبها ، ولعله نفس ابن رشيق الذى يغلب على الظن أنه أعيد إلى ولاية مرسية بعد أن أفرج عنه المرابطون عند دخولهم إشبيلية ، فخرج من ثقافة (٦٨) خاصة وأن أهل مرسية كانوا قد امتنعوا عن الخضوع الراضى بن المعتمد ، ولواليه عليها القائد ذى الوزارتين أبى الحسن بن اليسع (٦٩) ، الذى خلعوه عن ولاية مدينتهم ، وثقفوها ، « وجفوا كل من مضى إليهم ، وامتنعت الحال على ذلك بعـد وسائط كثيرة تـكررت بينهم (٧٠) » .

وأيا ما كان الأمر ، فقد آلت مرسية إلى المرابطين الذين تمهدت لهم بلاد المغرب والأندلس ، واتخذها الأمير ابن عائشة فيما يظهر قاعدة لامارته فى شرق الأندلس (٧١) ومنها خرج ابن عائشة فى ٤٩٠ هـ واشترك بقواته مع محمد بن الحاج فى إيقاع الهزيمة بجيش القشتاليين فى كنشرة Consuegna (٧٢) ، كما قام فى سنة ٤٩٧ هـ بهزيمة القشتاليين فى فحص اللج الواقع بالقرب من طليطلة (٧٣) ، كما خرج من مرسية فى سنة ٥٠١ هـ ليشترك مع الأمير تميم بن يوسف فى موقعة أقليش المعروفة بوقعة الأقاط السبعة السابق ذكرها ، وهى الوقعة التى لقى فيها الأمير سانشو بن الفونسو السادس مصرعه (٧٤) ، كما قتل فيها جند القشتاليين وكماة رجالهم عددا يصل إلى ٢٣ ألفا (٧٥) . كذلك خرج ابن عائشة من مرسية فى سنة ٥٠٤ لنجدة محمد بن الحاج عامل سرقسطة عندما حاصرها الفونسو سانشث Alfonso Sanchez المعروف بالفونسو المحارب ، ملك أرغون ونبرة .

ويعتبر ابن عائشة أول أمير مرابطى تولى إمارة شرق الأندلس مقره مرسية ، وظل يقوم بمهـام هـذا المنصب بالاضافة إلى قيـــادته لجيوش هـــذه المنطقة إلى أن كف بصره فى سنة ٥٠٨ هـ عقب غـزوة برشلونة

التى استشهد فيها أبو عبـــد الله محمد بن الحاج ، وهى المسماة بوقعـــة البـــورت (Congost de Martorell) (٧٦) ، فاستدعاه أخـــوه الأمـير على بن يوسف إليه ، وأقام مكانه عليها أخاه إبراهيم المعروف بابن تاعيشت (٧٧) الذى ولى أمرها إلى أن انتقل إلى إمارة إشبيلية (٧٨) . ويبـدو أن ابن عائشة كان يترك لأهل مرسية حق اختيار من يتولى شؤون مدينتهم ، مكتفيا هو بإمارة شرق الأندلس ، وقيـادة الجيوش ، وذلك لاضطراره إلى الخروج من مقـر إمارته فى أوقات الحروب أو عند توجهه إلى بلنسية أو جزيرة شقر (٧٩) طلبا للراحة . ويؤكد ماذهبنا إليه أن مرسية كان لها قصران : أحدهما القصر الكبير وكان يقيم فيه ابن عائشة ، والثانى الدار الصغرى (٨٠) لاقامة والى المدينة ، كما يؤكده أن ابن عذارى ذكر أنه خطب فى مرسية لقائد يقال له أبو محمد عبدالله الثغرى فى ١٤ شوال سنة ٤٨٩ هـ ، ولكن ولايته لمرسية لم تطل إلى أكثر من ١٦ يوما خلعوه بعدها فى ٣٠ من شوال بسبب كراهيتهم لسيرته ، ثم بايعوا عليهم القائد الثغرى أحمد بن أبى جعفر عبد الرحمن بن طاهر الذى تزعم الثورة على القائد أبى محمد الثغرى السالف ذكره فى أول ذى القعدة سنة ٤٨٩ هـ ، ثم خلع ابن طاهر بدوره فى ٢ ربيع الأول سنة ٤٩٠ هـ ، وقتل (٨١) . ثم أسندت ولاية مرسية إلى أبى زكريا يحيى بن على بن غانية المسوفى فى سنة ٥١١ هـ (٨٢) من قبل يدر بن ورقاء أمير بلنسية .

ولم يلبث المرابطون أن استنفذوا قواهم فى الأندلس بسبب المعارك المتواصلة التى خاضتها جيوشهم ضد أعداء الأندلس من الممالك النصرانية فى شبه جزيرة أيبيريا وتكتل قطلونية وأرغون وقشتالة والبرتغال ضدهم ، وبسبب الهزائم التى منيت بها جيوشهم أمام الفرنسو المحارب فى سرقسطة سنة ٥١١ هـ وفى كتندة من قرى سرقسطة فى سنة ٥١٤ هـ (٨٣) ، وكانت هذه الموقعة كارثة للمرابطين إذ قتل فيها من المطوعة عشرون ألفا (٨٤) . وعندما طالب المرابطون أهل الأندلس ببذل العون لهم تنكر الأندلسيون لهم ، وتحولوا عنهم وأعلنوا ثوراتهم عليهم ، وطردوا ولاتهم وضبطوا أمور بلادهم بأنفسهم ، واستعان فريق من ثوار الأندلس على المرابطين بجيوش قشتالية وبرتغالية (٨٥) . فاستقل ابن وزير بغرب الأندلس ، وأبو محمد سدراى ويوسف البطروجى بلبلة ، ولبيد بن عبدالله بشنترين ، وأبو الغمر بن عزرون

بشريش ، وعلى بن عيسى بن ميمون بقادس ، ومحمد بن على بن الحجام ببطليوس ، ومحمد بن المنذر بشلب ، وابن عنان بيابرة ، وابن حمدين بقرطبة ، وابن حسون بمالقة ، وأبو أمية أحمد عاصم بأوريولة . اما مرسية فقدكان يتولى القيادة فيها القائد أبو زكريا يحي بن على بن غانية منذ سنة ٥١١ ، وظل يقوم بولايتها إلى أن كانت سنة ٥٣٩ ﻫ ، وهى السنة التى كثر فيها الثوار بشرق الأندلس وغربها من القضاة وغيرهم ، وكان أول الثوار على المرابطين بمرسية أبو محمد عبد الرحمن بن جعفر بن ابراهيم بن الحاج ، قدمه أهل مرسية عليهم ، فدعا لابن حمدين الثائر بقرطبة أياما من شهرى رمضان وشوال سنة ٥٣٩ ﻫ ، ثم سحب تبعيته له ، واستقل بمرسية . وفى هذه الآونة ظهرت شخصية بارزة فى الأندلس ، هو سيف الدولة بن هود أبو جعفر أحمد ابن عبد الملك المستنصر بالله صاحب سرقسطة وحصن روطة الذى تمكن من إزاحة ابن حمدين من قرطبة وتغلب على جيان وغرناطة ، فداخله أهل مرسية واستدعوه ، وولوه عليهم فى آخر سنة ٥٣٩ﻫ ، فقدم إليها فى ١٨ رجب سنة ٥٤٠ ﻫ (٨٦) . وكان قد أقام عليها من قبله قائدا من قواده يعرف بعبد الله بن فتوح الثغرى ، الذى شرع ولايته بإخراج ابن الحاج منها فى ١٥ شوال سنة ٥٣٩ ، والدعوة لابن هود (٨٧) . ولم يطل العهد بابن فتوح فى مرسية ، فلم يلبث أن انقلب عليه أهل مرسية فأخرجوه منها ، وقدموا عليهم القاضى الفقيه أبا جعفر محمد بن عبدالله بن أبى جعفر الخشنى فى آخر شوال سنة ٥٣٩ ، وقلدوه رئاستهم ، وكان أبو جعفر هذا من اهل البيوتات الكبيرة بمرسية ، وكان يتظاهر بالزهد فى الإمارة ويقول : « ليست تصلح لى ولست لها بأهل ، ولكنى أريد أن أمسك الناس بعضهم عن بعض حتى يجيء من يكون لها أهلا (٨٨) » . ثم دعا أهل مرسية لابن حمدين ، فأرسل إليهم أبا محمد عبدالله بن عياض الثغرى قائد كونكة واليـــا ، بينما قدم أبا جعفر بن أبى جعفر قاضيا فتنازع الرجلان على الاستبداد بمرسية ، فداخل أبو جعفر اهل بلده فى أن يؤمروه ويقدموا للقضاء أبا العباس الحلال والقيادة الخيل عبدالله الثغرى ، فلم يخالفوه وتمكن أبو جعفر على هذا النحو من الاستئثار بالحكم . وما إن تم له ذلك حتى نبـــذ طاعة ابن حمدين ودعا لنفسه ، وتلقب

بالأمير الناصر لدين الله ، وقبض على الثغرى فسجنه هو وصهريه ، وقلد قيادة الجيوش لزعنون ، أحد وجوه الجند (٨٩) .

بعد أن أقصى الثغرى عن الحكم توجه ابن أبى جعفر إلى شاطبة ليعين أميرها ابن عبد العزيز فى إحكام الحصار على المرابطين المتحصنين بقصبتها بقيادة عبد الله ابن محمد بن غانية ، فانتهز العامة بمرسية فرصة غياب أميرهم ابن أبى جعفر ، فأفرجوا عن الثغرى وصهريه من معتقلهم ، وما كاد ابن أبى جعفر يعلم بذلك حتى بادر بالعودة إلى مرسية ، ونجح فى إخماد الحركة المضادة ، فاضطر الثغرى إلى الفرار إلى كونكة ، وعندئذ عاود ابن أبى جعفر حصاره لشاطبة ، وأرغم ابن غانية على الخروج منها ، ثم عاد إلى مرسية فى صفر سنة ٥٤٠ هـ . ودعاه أهل غرناطة لنجدتهم ، فاستجاب لدعوتهم ، ولكنه تلقى هزيمة نكراء على أيدى المرابطين (٩٠) بظاهر غرناطة فى ربيع الأول سنة ٥٤٠ ، فقبض عليه جنده ، وقتلوه وأجمع أهل مرسية على تأمير حفيد لأبى عبد الرحمن بن طاهر ، ولكنهم زهدوا فى إمارته فخلعوه . ثم اتفقوا على تقديم القائد أبى محمد عبدالله بن عياض الثغرى (٩١) . وكان ابن عياض هذا قائدا عظيما ، أرهب إسبانيا بسيفه ، وكان « النصارى يعدونه وحده بمائة فارس ، إذا رأوا رايته قالوا هذا ابن عياض هذه مائة فارس (٩٢) » . وقد نجح ابن عياض فى ضم بلنسية إلى إمارته بمرسية ، ودعا لابن هود (٩٣) ، ثم دعا لنفسه بعد وفاته . وكان ابن عياض قد استقدم القائد الثغرى للإفادة من خبراته ، فأنفذه رسولا من قبله إلى أذفونش (الفونسو السابع المعروف بالسليطين والملقب بالامبراطور (٩٤)) ليعقد معه السلم ويمالئه على صاحب برشلونة ريموندو برينجر الرابع ، فدخل الثغرى مرسية فى غياب ابن عياض وثار فيها بزعم أن أذفونش أمره عليها فهرب محمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض فيها إلى لقنت فى ٧ رجب سنة ٥٤١ هـ ولكن ابن عياض تمكن سريعا من استرجاع مرسية . وكان ابن عياض قائدا مجاهدا ، غازى النصارى ، ولكنه استشهد فى إحدى المعارك (٩٥) ، إذ أصيب بسهم رماه به أحد النصارى فى ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ ، فدفن ببلنسية ، وتولى على مرسية من

بعده نائبه فيها على بن عبيد ، وظل يتولى أمر مرسية إلى أن تخلى عن الامارة لأبى عبدالله محمد بن سعد الجزامى المعروف بابن مردنش (٩٦) صهر ابن عياض ، فى أواخر جمـــادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ . وقد تمكن ابن مردنش من التغلب على إقليم شرق الأندلس ، واستعان بالنصارى الإسبان واتخذ منهم أعوانا وجندا ضد خصومه الموحدين ، وخصص لهم بمرسية ، منازل فيها الحانات والبيع (٩٧) ، وأخرج كثيرا من أهل مرسية وأسكن النصارى مكانهم (٩٨) . ثم آل أمر ابن مردنيش إلى الادبار بسبب استعانته بنصارى إسبانيا ضد الموحدين الذين ثبتت أقدامهم فى الأندلس لجمع شتاته أمام حركة الدفع الاسبانية ، واشتبك ابن مردنيش مع جيوش الموحدين فى عدة معارك تبـــادل فيها الفريقـان النصر والهزيمـة ، ولـكنه انهزم على أيدى الموحدين فى فحص الجندون الواقع شرقى لورقة فى ٧ ذى الحجة سنة ٥٦٠ هـ (٩٩) ولعله نفس الفحص المعروف بالفندون المتصل بفحص شنقنيرة (١٠٠) ، وقد أعاد الموحـــدون حصارهم لمرسية فى رجب سنة ٥٦٦ هـ ، وتمكنوا من انتزاع حصن إلش الواقع غربى مرسية وجزيرة شقر من يد ابن مردنيش . وفى سنة ٥٦٧ هـ عزم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على التغلب على ابن مردنيش ، فتظاهر بقصده غزو القشتاليين ، فحشد حشودا ضخمة من قبائل الموحدين والعرب بلغ عددها مائة ألف (١٠١) وأجاز إلى الأندلس ، وقصد إشبيلية ونزلها ، ثم جهز عساكره إلى محمد بن مردنيش ، وكتب إلى أخيه عثمان بن عبد المؤمن والى مدينة غرناطة ، يأمره بالزحف بعساكر الموحدين إلى مدينة مرسية دار مملـكة ابن مردنيش ، فخرج عثمان بالعسكر حتى نزل فى موضع قريب من مرسية يقال له الجلاب يبعد عنها بنحو ٤ أميال ويعرف بجامة بالقواد فزحف إليه ابن مردنيش فى جموع عظيمة أكثرها من الافرنج ، فالتقى جيشه مع الموحدين فى موقعة عنيفة انتهت بهزيمة ابن مردنيش وأنصاره هزيمة نكراء ، تراجع على أثرها إلى مرسية وامتنع بداخــــل أسوارها ، واستعد للحصار (١٠٢) وواصل الموحدون حصارهم على مرسية وشددوه هذه المرة ، فاعتل ابن مردنيش بمرض الذبول وتوفى فى ١٠ رجب سنة ٥٦٧ ، وتـكتم رجاله خبر موته حتى قدم أخوه

يوسف بن سعد الملقب بالرئيس من بلنسية ، فاجتمع رأيه ورأى أبناء أخيه على أن « يلقوا أيديهم فى يد أمير المؤمنين أبى يعقوب ويسلموا إليه البلاد (١٠٣) » ، وقيل أن ابن مردنيش عندما حضرته الوفاة استدعى بنيه وخاطبهم قائلا « يا بنى ، إنى أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر ، وأتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد فى طاعتهم ، وإنى أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم ، فسلموا إليهم الأمر اختيارا منكم ، تحظوا بذلك عندهم ، قبـــل أن ينزل بكم مانزل بغيركم وقد سمعتم مافعلوا بالبلاد التى دخلوها عنوة (١٠٤) » ويؤكد ابن الخطيب أن ولده أبا القمر هلال تولى الأمر من بعده ، فبادر بإعلان طاعته للموحدين ، وتخلى لهم عن مرسية ، فوجه الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى مرسية أخاه السيد أبا حفص (١٠٥) .

وهكذا دخلت مرسية فى فلك دولة الموحدين ، وبدخولها فى دائرة نفوذ الموحـــدين استوسقت طاعتهم بشرق الأندلس وشملته دعوتهم . ثم توالت على مرسية ولاة الموحدين ، نخص بالذكر منهم الشاعر أبا رجال بن غلبون (١٠٦) ، وتوجه الخليفة أبو يعقوب بنفسه إلى مرسية فى ذى الحجة سنة ٥٦٧ وأقام فيها زهاء شهرين (١٠٧) ، وتزوج الخليفة الموحدى الزرقاء المردنيشية إبنة محمد بن مردنيش فى سنة ٥٧٠ هـ (١٠٨) ، وتلطف مع بـــنى مردنيش لالتزامهم الحكمة باستسلامهم إليه ، فآثر هلالا بصحبته (١٠٩) ، وقلد غانم بن محمد على أساطيل العدوة بسبتة (١١٠) ، وقدم الأمير يوسف بن سعد على بلنسية وجهاتها (١١١) وظل يتقلد هذه الولاية حتى توفى فى سنة ٥٨٢ هـ .

ولما ضعفت دولة الموحدين وتفرقت كلمتهم على أثر وفاة أبى يعقوب يوسف الثانى بن محمد الناصر فى سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ، أعلن أبو محمد عبدالله بن ابى يوسف يعقوب المنصور نفسه خليفة للموحدين ، واتخذ مرسية قاعدة له ، وتلقب بالعادل . فأقام عليها السيد أبا العباس بن أبى موسى بن عبـــد المؤمن ، وانتقل العادل إلى المغرب حيث قتل فى سنة ٦٢٤ هـ (١١٢٧ م) فنصب أخوه أبو العلاء إدريس نفسه خليفة ، وتلقب بالمأمون فى الوقت الذى بويع فيه أبو زكريا المعتصم

بالخلافة الموحدية فى المغرب ، وبينما قامت الحرب الأهلية بين المأمون وبين المعتصم كان النصارى فى أسبانيا يستولون على مدن الأندلس مدينة إثر مدينة وحصنا بعد حصن ، وتغير ميزان القوى فى الأندلس ، ولم تعد للمسلمين الكفة الراجحة .

وفى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الأندلس المشحونة بالاضطراب والفوضى قام أمير زعم أنه من سلالة بنى هود ، يدعى أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود ويسميه الاسبان فى مدوناتهم التاريخية بسيف الدولة Zafadola ، على الخليفة الموحدى المأمون ، فاستولى على مرسية وبويع له أميرا عليها ، ثم ضم إليه قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية والجزيرة ، وأطاعته سبتة (١١٢) . وأسند ولاية مرسية إلى عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب ، فدخلها فى آخر رجب سنة ٦٢٥ هـ ، وكانت الأندلس تجتاز وقتئذ مرحلة خطيرة من تاريخها : فالحرب الأهلية تشتد احتداما ، والشوائب والاضطرابات الداخلية تطحنها طحنا وتمزقها إربا ، وحركة الاسترداد الأسبانى تزداد عنفا ، والتوسع المسيحى يزداد تقدما فى قلب الأندلس ، وانتهز ملوك إسبانيا المسيحية فرصة انقسام الجبهة الاسلامية وافتتها وأخـــذوا يتوسعون على حساب دولة الاسلام فى الأندلس ، ففى سنة ٦٢٢ هـ استولى خايمى الأول (جاقمة) ملك أرغون على طرطوشة ومايليها ، وفى ٦٢٦ هـ سقطت مارده وبطليوس فى أيدى القشتاليين وفى سنة ٦٢٧ هـ استولى خايمى الأول على ميورقة ، كما تمكن فرناندو الثالث ملك قشتالة فى ٢٣ من شوال سنة ٦٣٦ هـ (٢٩ يونيو ١٢٣٦ م) من الاستيلاء على قرطبة الحاضرة القديمة للأندلس ، وأثار سقوطها فى أيدى القشتاليين الحزن والأسى فى نفوس المسلمين ، وتحطمت أعواد إسبانيا الاسلامية بعد هذه الصدمة العنيفة وانكمشت رقعتها سريعا أمام الدفع السريع لحركة الاسترداد الاسبانى . وتبع سقوط قرطبة سقوط غيرها من مدن الأندلس ، وأصبح الاسترداد الاسبانى لما بقى من ملك المسلمين فى الاندلس أمرا يكاد يكون محتوما ، وفى هـذه اللحظات الحاسمة التى يتقرر فيها مصير الاسلام فى إسبانيا توفى ابن هود فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) مخنوقا بايعاز من وزيره محمد بن الرميمى بالمرية ، بعد أن نقب فى قصره نقبا (١١٣) ، وعلى

إثر وفاته وجد جايمى الأول ملك أرغون الفرصة مهيأة أمامه لغـزو بلـ
كان يعتبرها منطقة امتداد لملكه ، فحاصرها برا وبحرا ، وقذفها بالمجانيق
حصاره لها حتى نفذت فيها الأقوات واستولى الجوع على أهلها ، فتوجهو
العون والنجدة إلى الأمير أبى زكريا الحفصى فى المحرم سنة ٦٣٦ هـ ،
الأجفان من تونس تحمل معونة الأمير الحفصى إلى أبى جميل زيان
بلنسية ، ولكن هذه السفن التونسية لم تستطع أن تفرغ حمولتها بسبب
الأرغونيين لحصارهم البحرى والبرى حول المدينة المحصنة ، واضطرت هذ
إلى تفريغ شحناتها من أطعمة وسلاح وغير ذلك بثغر دانية (١١٤) . و
بلنسية أن استسلمت فى ١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ (١١٥) (١٢٣٨ م) ، ود
الأندلس عقب سقوطها نواقيس الخطر ، إذ كان الرزء على المسلمين بفقد
والخطب فادحا ، وانطلقت صيحات الاستنصار تنطلق من أهل مرسية وبلـ
هذه تونس لحث أميرها أبى زكريا بن أبى حفص على إنقاذ مدن الأندلس ، و
الصرخات الشعرية السينية التى نظمها الكاتب أبو عبد الله بن الأبار القضاعى و

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها د
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر

ويستعرض الشاعر ما أصاب الأندلس من كوارث ونكبات مـ
القشتاليين والأرغونيين فيقول :

يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا للحادثات وأمسى جدها
فى كل شارقة إلمام بارقة يعود مأتمها عند العد
وكل غاربة إجحاف نائبة تثنى الأمان حذارا والسرو
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم إلا عقائلها المحجوبة ا
وفى بلنسية منها وقرطبة ما ينسف النفس أو ما ينزف
مدائن حلها الإشراك مبتسما جذلان ، وارتحل الإيمان مبتئسا

أما مرسية ، فقد انفرد بتدبير أمورها بعد وفاة ابن هود الفقيه أبو بكر

ابن عبد الملك بن خطاب ، الذى بادر بخلع الواثق أبى بكر بن محمد بن هود ، ودعا لنفسه وبويع له فى ٤ من المحرم سنة ٦٣٦ هـ (١١٧) أى قبل سقوط بلنسية بما يقرب من شهر . وكان ابن خطاب عالما زاهدا ، ثم انقلب بعد انفراده بالسلطان سفاكا للدماء ، وتشبه بالملوك دون أن تكون له خبرة بأمور السياسة والحرب ، فلم تشفع كفايته للإمارة ، فما كاد يلتحم مع القشتاليين فى إحدى الوقائع حتى ولى الأدبار ، وانهزم جيشه انهزاما مخزيا ، ترتب عليه استشهاد عدد كبير من أهل مرسية ، فكرهه أهل المدينة ، وعزلوه عن إمارتها ، واستدعوا فى ١٦ رمضان سنة ٦٣٦ هـ الأمير أبا جميل زيان بن أبى الحملات مدافع بن يوسف بن سعد بن مردنيش صاحب بلنسية (قبل أن يستولى عليها الأرغونيون) ودانية وأبذة وجنجالة ، فدخل المدينة طوعا ، وهاج العامة فى مرسية على ابن خطاب ، فهاجموا قصر مرسية ، وانتهبوا ما كان فيه من فرش وثياب وآنية وأموال ، وتم القبض عليه ، وظل معتقلا أياما إلى أن قتل ببعض زوايا القصر فى ٢٠ رمضان سنة ٦٣٦ هـ ، وأخذت البيعة للأمير أبى زكريا صاحب تونس (١١٨) . ولم يطل الأمر لزيان بن مردنيش ، إذ أخرجه عنها أهل مرسية ، وأعادوا الدعوة باسم بنى هود (١١٩) . وفى هذه الأنواء والعواصف السياسية التى هزت مركز الاسلام فى شرق الأندلس آثر عدد كبير من أهل مرسية الرحيل عنها رغما عنهم .

ثم تتابعت الأحداث فى مرسية سريعا فى السنين الأربعة التى سبقت سقوطها فى أيدى القشتاليين ، وأخبار هذه الفترة القصيرة غامضة فى المصادر العربية ، وكل مازودتنا به لايزيد على أن القشتاليين أحاطوا بمرسية من كل جانب ، وأخذوا يغيرون عليها وعلى نواحيها ، وقد أثر ذلك تأثيرا سيئا على عمرانها ، فساءت أحوالها ، خاصة بعد أن انتزع القشتاليون حصونها ومدنها ، فسقطت جزيرة شقر فى ٦٣٩ هـ . وكان الأمير محمد بن نصر بن الأحمر صاحب غرناطة ، الذى ظهر بعد ابن هود ، قد دخل فى طاعة فرناندو الثالث ، وتحالف معه بعد أن اشترط عليه فرناندو أن يكون تابعا له يزوده بالجند ، ويحارب معه بلاد المسلمين (١٢٠) .

وقنط أهل مرسية من إغاثة تأتيهم من الداخل أو من الخارج ، فاضطروا إلى أن يساعدوا القشتاليين فى ١٠ شوال سنة ٦٤٠ هـ على الدخول فى طاعتهم ودفع جزية لهم ، وتسليم القصبة إليهم . ويذكر ابن الأبار أنه لما أمكن أهل مرسية الروم منها احتج محمد بن على بن أحلى أحد أدباء مرسية عليهم « وضلل رأيهم وأبدى مخالفتهم ، وجعـــل يجادلهم بلسانه ويجالدهم بسنانه ، فدعا ذلك إلى قصده والعيث فى جهته حتى اضطر إلى المسالمة (١٢١) » . ويبـــدو أنه كان يتولى مرسية يومئذ أحد أحفاد ابن هود ، فقد ذكر المقرى أن أحمد بن محمد بن هود ، ولد والى مرسية ، قدم بجماعة من وجوه النصارى فملكهم إياها صلحا (١٢٢) .

ثم فطن أهـل مرسية فى أوائل سنة ٦٤١ هـ إلى حقيقة ماحـدث ، فعملوا على تحرير بلدهم ، وثاروا على القشتاليين المقيمين فى القصبة وأخرجوهم منها ، وأعلنوا دخولهم فى طاعة ابن الأحمر ، فأرسل إليهم أبا محمد بن أشقيلولة والياً ، ولـكن القشتاليين لم يسكتوا على ذلك ، فهاجموه ، وضيقوا عليه فاضطر إلى الفرار بنفسه تاركا مرسية لمصيرها التعس ، فولى أهل مرسية عليهم قائدا منهم ، ورد ذكره فى المصادر اللاتينية باسم ابن هذيل (Abenhodeil) ومع ذلك فقـــد أحس هذا الوالى بالنتيجة المحتومة ، فبادر بالاتصال بقادة الملك القشتالى ، وفى مقدمتهم بلاى بيريث كوريا Pelay Perez Correa ، واتفـاهد معه على تسليم مرسية إليه على شريطة أن يتعهد كوريا بضمان سلامة أرواح أهـل المدينة وأموالهم ، وبمقتضى هذا الاتفاق دخـــل القشتاليون مرسية فى ٩ ذى القعدة سنة ٦٤١ هـ (مايو ١٢٤٣ م) (١٢٣) .

ويشير ابن عذارى إلى أن فرناندو الثالث ورجاله أساءوا بعد ذلك إلى الجماعة التى تزعمت حركة المقـــاومة فى مرسية ضدهم ، فأخرجوهم منها إلى موضع يقال له الرشاقة (١٢٤) يعتبر من متنزهات مرسية المشهورة (١٢٥) ، ثم طردوهم منه بعد ذلك فى سنة ٦٧٣ هـ ، وهاجموهم فى الطريق ، وذبحوا منهم أعداداً هائلة .

واجتاحت الأندلس بعد سقوط مرسية موجة عاتية من الاضطراب والفوضى

سقطت خلالها معاقل إسلامية هامة ، نخص بالذكر منها مدينة شاطبة التى خرجت من أيدى المسلمين فى سنة ٦٤٥ هـ ، وإشبيلية التى استولى عليها القشتاليون فى سنة ٦٤٦ هـ بعد حصار دام عاما وخمسة أشهر (١٢٦) ، وفى هذه اللحظات الحاسمة فى تاريخ الأندلس ظهرت شخصية عربية قوية كان لها الفضل الأعظم فى ضم ماتبقى من مدن الأندلس وتوحيدها فى مملكة واحدة ، ذلك هو الأمير محمد بن يوسف ابن الأحمر الذى نجح فى تأليف جبهة قوية أمام الخطر الاسبانى المسيحى ، وقدر لأسرة بنى الأحمر أن تحكم مملكة غرناطة زهاء قرنين ونصف قرن ، على الرغم من الصراع غير المتكافىء بين النصرانية والاسلام ، وما عانته هذه المملكة من حروب داخلية انتهت فى آخر الأمر بسقوط غرناطة حاضرة هذه المملكة فى ٢ يناير ١٤٩٢ فى يد الملكين الكاثوليكيين .

* * *

كانت مرسية موطن الشيخ أبى العباس ومسقط رأسه من أعظم مدن شرق الأندلس فى العصر الاسلامى ، وأكثرها عمرانا واتساعا ، فقد اتسمت منذ تاريخ إنشائها وأصبح لها فى زمن الشريف الادريسى ربض عامر آهل يحيط بهــا وبه أسوار حصينة ، وكانت مياه النهر الأبيض تشق ربضها ، وكان يجاز إليها من الربض على قنطرة من المراكب (١٢٧) ، وكان بنهرها أرجاء متنقلة على المراكب ، كما كان لها مسجد جامع جليل وحمامات عديدة وأسواق عامرة (١٢٨) ولاتحتفظ مرسية اليــوم بآثار كثيرة من العصر الاسلامى ، وأهم ماتبقى فيها من العصر الاسلامى آثار حصن صغير يقال له « قصير منت أقوط » مازال يشرف على فحص مرسية ، ولعل هذا القصير كان أحد القصبات التى أسست فى زمن تبعيتها للمرابطين (١٢٩) .

واشتهرت مرسية بخصب تربتها ، وكرم بقعتها ، وطيب ثمارها ، وكثرة البساتين والمتنزهات فى نواحيها (١٣٠) ، حتى أنهم سموها « البستان » لكثرة جناتها المحيطة بها (١٣١) ، ومن أشهر فواكه مرسية الكروم والتين (١٣٢) . كذلك اشتهرت

مرسية بتوافر معادن الفضة (١٣٣) ، والبلور واللازورد (١٣٤) ، والمغرة (١٣٥) . لكل ذلك ازدهرت مرسية فى العصر الاسلامى اقتصاديا ، وفاقت غيرها من مدن الأندلس فى مجـــال الصناعة ، فعرفت بصناعة الوشى والديباج والحلل (١٣٦) ، حتى قيل : « كما يتجهز الفارس من تلمسان كذلك تتجهز العروس من مرسية (١٣٧) » واختصت مرسية دون غيرها من مدن الأندلس بصناعة نوع من البسط المسماة بالتنتالية (١٣٨) كانت تصدرها إلى سائر بـــلاد المشرق ، وفى مرسية كانت تصنع « الأسرة المرصعة ، والحصر الفتانة الصنعة (١٣٩) وآلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندى مايبهر العقل ، ومنها تجهز هـــذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها (١٤٠) » . وكان يصنع فى جنجالة من عمل مرسية من وطاء الصوف مالا يمكن صنعه فى غيرها (١٤١) .

وكما تألقت الحياة الاقتصادية فى مرسية تألقت الحياة العلمية بها ، وازدهرت ازدهارا تشهد به الأسماء اللامعة التى ظهرت فى مرسية وبرزت فى سماء الفكر الأندلسى ، فقد كانت مرسية بلد العلم والأدب والفقه والتصوف ، على الرغم من النوائب التى أصابتها والأحداث المتتابعة التى عصفت بها طوال العصر الاسلامى ، فنبغ فيها فى عصر الطوائف وعصر المرابطين عدد كبير فى جميع فروع المعرفة فى الفقه والحديث والنحو والأدب ، نذكر منهم على سبيل المثال الفقيه أبو محمد عبدالله بن سعيد المرسى (ت ٥٥٥ هـ) (١٤٢) ، وأبو اسحاق إبراهيم بن عامر النحوى (١٤٣) ، وأبو الحسن على بن اسماعيل بن سيده المرسى اللغوى (١٤٤) ، ومن المتصوفة : ابن سبعين المرسى (ت ٦٦٩ هـ) (١٤٥) ، والشيخ الأكبر محى الدين بن عربى المرسى (ت ٦٣٨ هـ) (١٤٦) ، ومن الكتاب : أبو عامر بن عقيد كاتب ابراهيم بن يوسف بن تاشفين (١٤٧) ، وأبو يعقوب يوسف بن الجذع كاتب ابن مردنيش (٤٨) وأبو محمد عبدالله بن حامد كاتب العـــادل الموحدى (١٤٩) ومن الشعراء : عبد الجليل بن وهبون (١٥٠) وعلى بن جزمون (١٥١) ، ومن الحفاظ الفقيه ابن برطلة أبو محمـد عبدالله بن موسى المرسى (١٥٢) وأبو جعفر أحمـد بن محمد

الكنانى المرسى (ت ٦٢٨ ﻫ) (١٥٣) والفقيه أبو عبدالله محمد بن عبدالله السلمى المرسى (ت ٦٥٥ ﻫ) (١٥٤) .

ومن علماء مرسية الذين نزلوا بمصر الفيلسوف أبو عبدالله محمد بن يوسف المرسى المتخصص فى الفقه والكلام ، وقد نزل الاسكندرية فى سنة ٥٢١ ﻫ (١١٢٧ م) والشيخ الزاهد الكبير أبو العباس أحمد بن عمر الانصارى المرسى (ت ٦٨٦ ﻫ) .

* * *

وبعد فهذا ، أيها السادة ، عرض موجز لمدينة أبى العباس الذى هجرها رغما عنـــه بحثا عن وطن جديد ، أنفة من الدجن أى الخضوع لحكم النصارى . وشاء الله أن يتخذ ثغر الاسكندرية وطنه الجديد ، فيؤسس فيه مدرسة فى التصوف على طريقة أستاذه الشيخ أبى الحسن الشاذلى .

وتوفى الشيخ أبو العباس المرسى فى سنة ٦٨٦ ﻫ (١٢٨٨ م) بعد ٤٤ سنة قضاها فى الثغر ، ودفن فى مقبرته برباط سوار خارج باب البحر ، تاركا فى قلوب أهل الاسكندرية ذكرى عاطرة ستبقى على مر الأيام .



الهـــوامش

(١) يرتفع نسب الشيخ أبي العباس المرسى إلى سعد بن عبادة الأنصارى ، صاحب رسول الله ، وأول من نزل الأندلس من بنى سعد بن عبادة الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة الذى استوطن سرقسطة وأمّا بقرية من قراها يقال لها قربلان (ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٤٦) ، وأصبحت سرقسطة على هذا النحو منزل الأنصار فى الأندلس إلى أن انتقل عبـــد الرحمن بن محمد الأنصارى إلى بلنسية فرارا من الفتن التى احتدمت بسرقسطة (ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق الأستاذ عبدالله عنان ، ج ١ ص ١٨٩) وعلى أثر ذلك انتقل كثير من بنى سعد بن عبادة إلى نواحى الأندلس ، فاستقر بعضهم فى جنوب شرق الأندلس ، وتفرق البعض الآخر فى الشرق وعلى الأخص فى دانية وشاطبة (ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ٢ ص ٣٠٣) . وإلى قيس بن سعد بن عبـــادة ينتسب أيضا بنو الأحمر سلاطين غرناطة (المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ج ١ ص ٢٥٧ .

(٢) راجع ترجمة الشيخ أبي العباس فى : جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ١٩٢-٢١٢ ؛ حسن السندوبى ، أبو العباس المرسى ومسجده الجامع بالاسكندرية ؛ محمد محمود زيتون ، الإمام أبو العباس المرسى ، ص ٢٢ وما يليها .

(٣) فى فضائل الاسكندرية راجع ما أوردته تحت عنوان « الاسكندرية دار رباط » فى كتابى « تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى » الطبعة الثانية ، ص ٩١ - ٩٧ .

(٤) تاريخ الاسكندرية وحضارتهـــا فى العصر الاسلامى ، ص ٣٢٩ حاشية رقم ٢ .

(٥) الضبي ، بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ، تحقيق كوديره ، ص ١٣٢ ، ١٣٤ .

(٦) ابن بشكوال ، الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ، ج ٢ ص ٥١٨ ؛ الضبى ، ص ١٢٥ - ١٢٨ ؛ الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج ٤ ص ٤٨ ؛ السيوطى حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢١٣ - المقرى ، ج ٢ ص ٢٩٣ ؛ جمال الدين الشيال ، أبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد الثائر ، القاهرة ١٩٦٨ .

Pons Boigues, Ensayo Bio-bibliografico Sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles, Madrid 1898, p. 183.

(٧) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٥ .

(٨) نفس المصدر ٢١٤ . (٩) نفس المصدر ، ص ٢١٥ .

(١٠) نفسه ، ص ٢١٦ . (١١) نفسه ص ٢٣٥ .

(١٢) نفس المصدر ، ص ٢٣٦ . (١٣) نفسه ص ٢٣٦ .

(١٤) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٤١٥ .

(١٥) نفس المصدر ، ص ٣٩٤ .

(١٦) نفس المصدر ، ص ٣٥٧ .

(١٧) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٣٤١ .

(١٨) ارجع إلى تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، ص٢٢٩ .

(١٩) نفس المرجع ، ص ٤٨١ .

(٢٠) العذرى ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب البلدان ، والمسالك إلى الممالك ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، مدريد١٩٦٥ ، ص ٦

(٢١) ارجع إلى : الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٦٢ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٦ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢٢) محمد محمود زيتون ، ص ٢٣ .

(٢٣) الحميرى ، ص ٦٣ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١١١ .

(٢٤) يرجع بعض مؤرخى العرب فتح تدمير إلى سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) بعد هزيمة لذريق على أيدى المسلمين فى واقعة وادى لكة (ارجع إلى : أخبار مجموعة ، ص ١٣ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ١٦) وهو تاريخ يتفق عليه الأسقف دون رودريجو والملك الفونسو العالم فى كتاب التاريخ العام (Mariano Remiro, Murcia Musulmana, P.2) ومنهم من ينسب فتح تدمير إلى عبد الأعلى بن موسى بن نصير فى سنة ٩٣ هـ (٧١٢م) (راجع المقرى ، ج ١ ص ٢٥٧) بينما يميل العدد الأعظم من المؤرخين إلى الاخذ برواية ابن يدور الباجى الذى يؤكد فتحها على يد عبد العزيز بن موسى (راجع : أخبار مجموعة ص ٢٦ - Saavedra, Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892, p. 132 ؛ حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ١١٧) .

(٢٥) أخبار مجموعة ، ص ١٣ - ابن عذارى ج ٢ ص ١٦ - الحميرى ، ص ١٥٢ - المقرى ، ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢٦) المقرى ، ج ١ ص ٢٢١ .

(٢٧) الحميرى ، ص ١٨١ - المقرى ، ج ١ ص ١٥٥ .

(٢٨) الحميرى ، ص ١٨٣ .

(٢٩) العذرى ، ص ٦ - الحميرى ، ص ١٨١ - السيد عبد العزيز سالم ، دائرة معارف الشعب ، مادة مرسية ، عدد ٦١ ص ٤٧ .

(٣٠) ابن حيان ، المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس ، نشره أنطونية ملشور ، ص ٩ - ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٣١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٥٤

Una Cronica anonima de Abder-Rahman III, P. 53

(٣٢) الادريسى ، ص ١٩٤ - الحميرى ، ص ١٥١ .

(٣٣) ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٣٤) الادريسى ، ص ١٩٤ - الحميرى ، ص ١٨٢ .

(٣٥) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩٣ - ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٥٥ - ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ - Mariano Gaspar Remiro p. 92 .

(٣٦) المقرى ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٣٧) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، طبعة بيروت ، ص ٢١١ .

(٣٨) Mariano Gaspar Remiro, Murcia Musulmana, p. 97

(٣٩) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٦٢ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٤ .

(٤٠) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٩٣ .

(٤١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١١٨ .

(٤٢) Mariano Gaspar Remiro, op. cit. p. 105 .

(٤٣) راجع التفاصيل فى : ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١٢٠ - ١٢٢ - Remiro, op. cit. p. 107, 108

(٤٤) الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١١٩ ، ١٣١ - Aguado Bleye, Manuel de historia de Espana, t.1, p. 584

(٤٥) نفس المصدر ، ص ١٢٤ .

(٤٦) ابن الأبار ، ص ١٢٤ - Aguado Bleye, op. cit. p. 584 .

(٤٧) نفس المصدر ، ص ١٢٤ .

(٤٨) نفس المصدر ص ١٢٤ - طالع ماورد من دراسات حول هذا الحصن فى بحثى عن مرسية بدائرة معارف الشعب وفى ترجمتى لكتاب Ars Hispaniae, t. III تأليف الأستاذ جومث مورينو الذى صدر بعنوان الفن الاسلامى فى إسبانيا .

(٤٩) ابن الآبار ، ج ٢ ص ١٢٤ . وقد توفى أبو عبد الرحمن بن طاهر هذا فى بلنسية فى ٢٤ جمادى الآخرى سنة ٥٠٨ ، فسير بجثمانه إلى مرسية حيث دفن .

(٥٠) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٤٦ - مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ٨٠ .

(٥١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٦٠ .

(٥٢) ابن الابار ، الحلة ص ١٤٦ - مذكرات الامير عبدالله ، ص ٨٠ .

(٥٣) نفس المصدر .

(٥٤) للاستزادة فى بنى هود راجع رسالة الدكتوراة التى قدمها الزميل الدكتور عفيف ترك عن مملكة سرقسطة فى القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ، بعنوان : El Reino de Zaragoza en él siglo XI de Jesucristo, Madrid, 1956, p. 90

(٥٥) ابن الخطيب ، ص ١٦١ .

(٥٦) راجع تفاصيل هذه الوقعة فى المصادر والمراجع الآتية : الحلل الموشية ، ص ٢٦ - ٤٣ - عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٢ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٤٢ - حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٧٣ - ٢٨٨ - عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٣ - ٧٢٧
Ambrosio Huici Miranda, la invasion de los Almoravides y la batalla de Zalaca, Hesperis, t. XI 1953, p. 40.

(٥٧) مذكرات الامير عبدالله ، ص ١٠٨ .

(٥٨) نفس المصدر ، ص ١١١ .

(٥٩) نفس المصدر ، ص ١١١ .

(٦٠) نفس المصدر ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٦١) نفس المصدر ، ص ١١٢ - ابن الخطيب ، ص ٢٥٧ .

(٦٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، نص ١٨٦ .

(٦٣) هو الامير الاديب القائد أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين ،

ولاه أبوه يوسف قائدا على شرق الأندلس لإقرار الأمور فى هذا الاقليم الحافل بالاحداث من بلاد الاندلس ، بعد أن عاثت فيه قوات السيد القنبيطور فسادا (راجع : ابن الابار ، المجمع فى أصحاب القاضى الصدفى ، ص ٥٥ -
Codera, Estudios Criticos dè historia de Espana, Familia Real dé Los Benitexufin, Madrid, 1917, p, 105 - 109
ابن القطان ، جزء من نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود على مكى ، ص ٨ ، حاشية رقم ١ - ابن الكردبوس ، تاريخ الاندلس ، نص نشره وحققه الدكتور أحمد مختار العبادى ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد ١٣ ، ص١٠١ ، حاشية رقم ٤) .

(٦٤) راجع فى ترجمته : ابن القطان ، تعليق الدكتور محمود مكى فى حاشية رقم ١ ص ١١٠ - ابن الكردبوس ، تعليق الدكتور مختار العبادى ، فى حاشية رقم ١ ص ٩٦ .

(٦٥) هو القومس أو القمط (الكونت) القشتالى الفارفانيث (Alver Fanez) ابن أخى السيد القنبيطور ، أحد قواد قشتاليين سبعة للملك الفونسو السادس ، اشتركوا فى موقعة أقليش ضد المرابطين بقيادة الامير تميم ، التى انهزم فيها القشتاليون ، وانتهت بمصرع الامير سانشو ابن الملك الفونسو السادس من زايدة المسلمة كنة المعتمد بن عباد (ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ص ١٥٩ - ابن القطان ، ص٧ ، حاشية رقم ١) .

(٦٦) ابن الكردبوس ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٦٧) نفس المصدر ، ص ١٠١ ، وحاشية رقم ٣ .

(٦٨) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥٧ . وكان بنو ابن رشيق قد هربوا من مرسية بعد أن دخلتها قوات المعتمد بن عباد ، وانتزوا بالليين ، ومنعوا الميرة عن مرسية ، فاختلت أمورها ، ووقع الغلاء بها (الحلل الموشية ، ص٥٠) .

(٦٩) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، طبعة مصر ١٢٨٣ هـ ، ص ١٦٧ —
ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ص ٨٧ ، ٢٤٨ .

(٧٠) مذكرات الأمير عبدالله بن بلكين ، ص ١١٢ .

(٧١) ابن الآبار ، المعجم ، ص ٥٥ —

Rēmiro, Murcia Musulmana,p. 142 - Codera, familia real de los Benitexufin, p. 105

(٧٢) ابن الكردبوس ، ص ١٠٨ .

(٧٣) نفس المصدر ، ص ١١٣ .

(٧٤) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٥٩ .

Codera, Decadencia y désaparicion de los Almoravides en Espana, Saragoza, 1899, p. 9

(٧٥) Codera, Decadencia, p. 9 .

(٧٦) راجع تفاصيل الموقعة المذكورة في :

Codera, Dècadència y desaparicion, p. 272 .

(٧٧) ابن الآبار ، المعجم ، ص ٥٥

Codera; Familia real de los Benitexufin, p. 105

(٧٨) نفس المصدر ، ص ٥٦ .

(٧٩) الفتح بن خاقان ، مطمح الأنفس ، القسطنطينية ، ١٣٠٢ هـ ص ٨٥ .

(٨٠) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٢٣١ .

(٨١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٠٧ .

(٨٢) ابن القطان ، ص ٢٢٠ ، ملحوظة ٣ .

(٨٣) ابن الآبار ، المعجم ، ص ٥٦ ـ المقرى ، ج ٦ ص ٢٠٤ ـ المغرب الكبير
ج ٢ ص ٧٣٦ .

(٨٤) المقرى ، ج ٦ ص ٢٠٤ .

(٨٥) المغرب الكبير ، ص ٧٤٢ .

(٨٦) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٢٥١ .

(٨٧) نفس المصدر ، ص ٢٢٧ .

(٨٨) نفس المصدر ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٨٩) نفس المصدر ، ص ٢٢٩ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٨.

(٩٠) نتج عن هذه الموقعة أن خرجت لقنت وأعمال شاطبة من تبعيتها لامارة مرسية وانضافت إلى إمارة أبي عبد الملك مروان بن عبد العزيز صاحب بلنسية « ابن الآبار ، ج ٢ ص ٢٢٠ » .

(٩١) ذكر عبد الواحد المراكشي أن اسمه عبد الرحمن بن عياض « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ » .

(٩٢) عبد الواحد الراكشي ، ص ٢٠٩ .

(٩٣) أرسل إليه ابن هود ولده أبا بكر ، فخرج للقائه ، واحتفى بقدومه . كذلك قدم ابن هود بنفسه إلى مرسية فى ٢٠ رجب سنة ٥٤٠ هـ ، وحل بقصر مرسية الكبير ، فأظهر له ابن عياض الطاعة ، ونزل القصر الصغير ، فعهد إليه ابن هود بالأمور كلها وخصه بالرئاسة ، ثم توجه معه ابن عياض لمحاربة القشتاليين باللج أو البسيط على مقربة من جنجالة حيث وافاها عسكر بلنسية بقيادة عبدالله ابن سعد بن مردنيش ، ودارت المعركة وانتهت بهزيمة ابن هود فى ٣٠ شعبان سنة ٥٤٠ هـ « ابن الابار ، الحلة السيراء ص ٢٥١ » .

(٩٤) ابن الكردبوس ، ص ١٢٠ حاشية ٢ .

(٩٥) ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٠ .

(٩٦) هو إسبانى الاصل ينتمى إلى أسرة Martinez أو Martinus أو Mardonius الإسبانية . ودخل أحد أجداده فى ولاء عربى من جذام فنسب إليه وكان ابن مردنيش من أعظم أمراء مرسية « Codera, Decadencia. p. 112 et sqq - ابن الابار . الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٢٣٢ حاشية ١ » .

«٩٧» ابن الخطيب ، ص ٢٦١ .

«٩٨» عبد الواحد المراكشي . ص ٢٤٩ .

«٩٩» ابن صاحب الصلاة . كتاب المن بالإمامة ، ص ٢٧٢ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٦٢ .

«١٠٠» الحميري ، صفة الاندلس ، ص ١٧٢ .

«١٠١» المقري ، ج ٦ ص ١١٣ ، ٢٢٢ .

«١٠٢» عبد الواحد المراكشي ، ص ٢٤٩ .

«١٠٣» نفس المصدر ص ٢٤٩ .

«١٠٤» نفس المصدر ص ٢٥٠ .

«١٠٥» ابن الخطيب ، أعمال الاعلام . ص ٢٧١ .

«١٠٦» ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٦ .

«١٠٧» ، ابن صاحب الصلاة ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

«١٠٨» ابن الخطيب ، ص ٢٧١ .

«١٠٩» ذكر عبد الواحد المراكشي أنه أعطى هلال بن مردنيش اثنى عشر ألف دينار في يوم واحد « المراكشي . ص ٢٥٤ » .

«١١٠» في سنة ٥٧٥ غزا غانم بن مردنيش أشبونة وتغلب على قطعتين من سفن العدو ، وأسر في سنة ٥٧٦ هو وأخوه أبو العلا وجملة من أصحابه « ابن عذارى ، ج ٤ . ص ٣٠ . ابن الخطيب : ص ٢٧١ » .

«١١١» ابن الخطيب ، ص ٢٧١ .

«١١٢» ابن الخطيب ، ص ٢٨٠ .

«١١٣» ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٢ - المقري ، ج ٦ ص ٢٠٨ .

«١١٤» ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٠٤ .

«١١٥» ابن الخطيب ، أعمـــال الاعلام ص ٢٧٣ - المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ص ٢٠٤ .

«١١٦» المقرى ، ج ٦ ص ٢٠٠ ومايليها .

«١١٧» ابن الآبار ، الحلة السيراء ، ص ٣١٠ - ابن الخطيب ، ص ٢٧٥ .

«١١٨» ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٠٥ - ابن الخطيب ، ص ٢٧٥ .

«١١٩» ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٣ .

«١٢٠» اشترك ابن الأحمر فى الحملة القشتالية التى استولت على مدينة إشبيلية فى سنة ٦٤٦ هـ .

«١٢١» ابن الآبار ، الحلة السيراء ، ص ٣١٤ .

«١٢٢» المقرى ، ج ٦ ص ٢١٦ .

«١٢٣» ابن الآبار ، ص ٣١٤ حاشية رقم ٢ .

«١٢٤» نفس المصدر ، ص ٣١٦ .

«١٢٥» ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ص ٢٤٦ .

«١٢٦» ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦٢ .

«١٢٧» الأدريسى ، ص ١٩٤ - الحميرى ص ١٨٢ .

«١٢٨» الحميرى ، ص ١٨١ .

«١٢٩» **Gomez Moreno, Ars Hispaniae, t.III, Arte espanol hasta los Almohades, Madrid, 1951**

«١٣٠» راجع ماورد فى المغرب لابن سعيد خاصا بقرى مرسية مثل قرية مولة الواقعة فى غرب مرسية ، وقرية بليانة الواقعة فى شمـــالها (ص ٢٧١ ، ٢٧٣) ، ومدينة القنت المشهورة بتينها وزيتها (ص ٢٧٤) ، ومدينة لورقة وقرية برزز المعروفتين بكثرة البساتين (ص ٢٧٥ ، ٢٨٥) .

«١٣١» الحميرى ، ص ١٨٢ - المقرى ، ج ١ ص ١٥٥ .

«١٣٢» الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٩٦ .

«١٣٣» ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، تحقيق الدكتور أحمد لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الأول ، ج٢ ، نوفمبر ١٩٥٥ ص ١٦ - ابن الفقيه الهمزانى ، مختصر كتاب البلدان ص ٨٧ - الحميرى ، ص ١٨٢ - المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٣٨ .

«١٣٤» كان البلور واللازورد يكثران فى ناحية لورقة من عمل مرسية (الحميرى ص ١٧١ - المقرى ، ص ١٣٨ ، ١٥٨) .

«١٣٥» الادريسى ، نزهة المشتاق ص ١٩٦ .

«١٣٦» ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٤٥ - المقرى ج ١ ص ١٨٧ ،

«١٣٧» ابن سعيد ج ٢ ص ٢٤٦ .

«١٣٨» نسبة إلى تنتالة من عمل مرسية (الحميرى ، ص ١٨٢ - المقرى ج١ ص ١٨٧ - ج ٤ ص ٢٠٧) .

«١٣٩» ذكر القلقشندى أنها اختصت بالبسط بالتنتلية وبالحصر الملونة التى تغلف بها الجدران (المقرى ج ٤ ص ٢٠٧) .

«١٤٠» المقرى ج ١ ص ١٨٧ .

«١٤١» الادريسى ص١٩٥ .

«١٤٢» ، المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ٣٥٧ .

«١٤٣» ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٦٠ .

«١٤٤» نفس المصدر ص ٢٥٩ .

«١٤٥» المقرى ج ٢ ص ٣٩٥ .

«١٤٦» نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦١ .

«١٤٧» ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٣ .

«١٤٨» نفس المصدر ص ٢٥٤ ٠

«١٤٩» نفس المصدر ص ٢٥٦ ٠

«١٥٠» المراكشي ، ص ١٠٢ - المقري ج ٢ ص ١٧٩ ٠

«١٥١» نفس المصدر ص ٢٩٣ ٠

«١٥٢» المقرى ج ٣ ص ٤٠٥ ٠

«١٥٣» المقرى ج ٣ ص ٣٦٠ ٠

«١٥٤» نفس المصدر ج ٣ ص ١١ ٠

*

صورة عن وقعة الاسكندرية فى عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م
من مخطوطة « الإلمام » للنويرى السكندرى (١)

الدكتور پول كاله Dr. Paul Kahle

ترجمة وتعليق (٢)

درويش النخيلى

و

أحمد قدرى محمد أسعد

« لا توجد مدينة فى العالم القديم يمكن لها أن تنازع الاسكندرية تصدرها فيما تعرضت له مبانيها من دمار شامل ، كما لا توجد مدينة أخرى تنافسها فيما يحيط بطبيعة طبوغرافيتها من شك وغموض » . . . . وقد أردت أن أبرز أن تخطيط طبوغرافية الاسكندرية لا زالت تواجهه - حتى يومنا هذا - صعوبات جمة ، وتكتنفه ألغاز لا نستطيع لها حلا ، وقد تبقى هذه الألغاز - إلى وقت بعيد - دون أن نتمكن من الكشف عنها . وعلى هذا ، يجب أن يكون تخطيطنا للمدينة مجرد تخطيط تقريبى ومؤقت يقوم على الحدس والتخمين » . وهكذا يبين E. Breccia (٣) تلك الصعوبات المتعلقة بطبوغرافية الاسكندرية القديمة . ويرجع هذا - إلى حد كبير - إلى أننا نجهل الكثير عن اسكندرية العصور الوسطى . والمحاولة التى نبذلها هنا لإعادة تخطيط مدينة الاسكندرية القديمة ، هى بمثابة محاولة للتعرف على التخطيط الذى كانت عليه المدينة فى العصور الوسطى ، وهو التخطيط الذى لم يلق منا - حتى الآن - عناية تذكر (٤) .

إلا أن الاسكندرية فى العصور الوسطى كانت - ولا شك - مدينة مزدهرة داخل حدودها الضيقة التى ينتظمها سور المدينة العربى (٥) وخاصة منذ أن أصبحت فى العصر الفاطمى أكبر ميناء تجارى يتبادل نشاطه التجارى مع المدن التجارية

الأخرى فى البحر الأبيض المتوسط . ويكفى أن نذكر فى هذا المقام إعجاب الرحالة الأندلسى ابن جبير بمدينة الاسكندرية فى عصر صلاح الدين (٦) ، وأن نستعيد أيضاً ذلك الوصف الشاعرى الذى سجل به ابن بطوطة انطباعاته عن الاسكندرية ، وهى الانطباعات التى عبر عنها أثناء مروره بها فى عام ١٣٢٦ م وعند عودته إليها فى عام ١٣٤٩ م (٧) .

وقد زار الرحالة الألمانى Ludolf von Sachem الاسكندرية فى عام ١٣٤٠ م ، فخلف لنا فى تقريره الذى كتبه فى عام ١٣٥٠ م (٨) الوصف التالى للمدينة :

« تعتبر الاسكندرية أول مدن مصر البحرية وأعظم مدن السلطان . وهى تقع بالقرب من أحد فرعى النيل الذى ينحدر من الجنة ، وهو النهر الذى يصب فى البحر بالقرب منها . وتتصف المدينة بالجمال الفائق والحصانة الشديدة ، فهى مزودة بأبراج عالية وأسوار منيعة . ويبدو أن سكانها القدامى كانوا من المسيحيين ، بينما يقطنها المسلمون فى الوقت الحاضر . ويمتاز داخل المدينة بحسن الرواء ، إذ يسود البياض لون أبنيتها ، فى حين تتفرع قنوات مياهها الجارية فى كل زاوية من شوارعها . وتلقى المدينة عناية خاصة للاحتفاظ بنظافتها ، إذ يوجد بها المحتسبة الذين يمنعون الناس من إلقاء مايقلل من نظافة شوارعها أو مياهها ، ويحتفظ السلطان فى هذه المدينة ببعض المرتزقة والأتباع لحمايتها هى وميناثها . وتبدو هذه المدينة للوهلة الأولى وكأنها من المناعة بمكان بحيث يستحيل الاستيلاء عليها ، إلا أنها تعرضت للسقوط بالرغم من ذلك » .

ولا نشك فى أن ثمة تطوراً سريعاً حدث فى المدينة ، إذ أورد Emmanuel Piloti ـ الذى أقام أكثر من ثلاثين عاما فى أراضى المسلمين قضى معظمها بالاسكندرية ـ فى مقاله : " Traité sur le passage dans le Terre Sainte " الذى يوصى فيه البابا يوجين الرابع Eugén IV (١٤٣١ - ١٤٤٧) بأن يبادر بمد يد المساعدة للمسيحيين فى مصر (٩) :

« أدى فساد الحكم الذى فرضه حكام القاهرة على البلاد إلى أن أصبحت الاسكندرية ـ وهى مدخل دولتهم ومفتاحها ـ مهجورة من السكان ، بالرغم من أنها مدينة كبيرة وجميلة ، تكتظ بالمنازل المزينة بالنقوش . وتحتوى قصورها الجميلة على الكثير من الرخام والأبنية ذات الزخارف . وبالرغم من ذلك ، فقد نزح عنها سكانها وهجروها . وقد رأيت فى أيامى بيوتاً ومساكن كان الواحد منها يساوى ثلاثة أو أربعة آلاف دوقة Ducas ، ولا يتعرض لها أحد بالشراء إلا للحصول على رخامها المنقوش وغيره من الأشياء الثمينة الموجودة بداخلها . ويرسل هؤلاء ما يأخذونه منها إلى القاهرة عن طريق النيل ، حيث يعيدون استعماله فى قصورهم . ولذا ، يمكن القول بأن الاسكندرية ليست إلا مدينة هجرها سكانها ، وستظل على هذا النحو حتى يأتى المسيحيون لغزوها وسكناها وإعادتها إلى ما كانت عليه من قبل »

ومن المؤكد أن الاسكندرية قد مرت بها تطورات أساسية فى الفترة من ١٣٤٠ إلى ١٤٤٠ ، وهى التطورات التى كشفت عنها الغارة الفجائية التى قام بها بطرس لوزينان Peter von Lusignan ملك قبرص فى عام ١٣٦٥ والتى كانت بمثابة تذكرة أخيرة للحروب الصليبية. ولقد تسببت هذه الغارة فى تخريب المدينة تخريباً شديداً ، فلم تتمكن من أن تستعيد نشاطها حتى القرن التاسع عشر ، إذ دامت نتائج هذا التدمير لفترات أخرى لاحقة . ففى حوالى القرن الخامس عشر ، أصبح القسم (الحى) العاشر من المدينة خالياً من السكان (١٠) نظراً لما أصاب المدينة من تخريب فى الداخل ، فأصبحت مهجورة ، فى الوقت الذى كانت تتداعى فيه المنازل الواحد بعد الآخر ، حتى لم يعد وسط المدينة يصلح للسكنى ، فقل عدد قاطنيه من الأهالى (١١) .

وتمثل خريطة الاسكندرية التى رسمها فى تقريره الرئيس بيرى (١٢) عن البحرية Bahrije des Piri Re'îs صورة واقعية عن المدينة فى عهد الاحتلال التركى (١٥١٧) ، وهى الخريطة التى قمت بنشرها بعد أن أعددت مسودة للطبعة

الثانية (١٣) ففي داخل سور المدينة ، نرى المسجدين الجامعين - حيث أدى السلطان التركي سليم الأول صلاة الجمعة في الجامع الغربي (١٤) ، وذلك في يوم الجمعة الموافق ٦ يونية (١٥) - كما نرى مرتفعين على بعد قريب من باب البحر . أما في شرق المدينة عند باب رشيد ، فنرى بعض المنازل التي كانت لا تزال قائمـــة ، وما دون ذلك فهو خـــراب .

وقد بدأت أعمال إعادة البناء في حوالي نهاية القرن السادس عشر خارج سور المدينة في اتجاه جزيرة فاروس (١٦) وفي القـــرن السابع عشر ، كان يقع داخل سور المدينة عـــدة فنادق ومنازل ضخمة استخدمها التجار كأوى لهم ولخـــزن بضائعهم ، إلى جانب وجـود كنيستين وعـدة أديرة ومساجـــد ، أصبحت كلها مأهولة ، بينما لم يعد لهذه الفنـادق وجود في القـرن الثامن عشر . وفي الوقت الذى كان فيه القنصل الفـــرنسي Benoît de Maillet بالاسكندرية فـــيما بين عامي ١٦٩٢ و ١٧١٨ ، لم يكن يسكن المدينة القديمة أكثر من مائة شخص (١٧) . وقـــد روى Benoît أن المرء في ذلك الوقت لم يكن ليستطيع الخـروج صباحاً أو مساءً دون أن يعتريه الخـوف من أن يتعرض للسرقة . ومن المعتقد أن الأهـالي في تلك الفـــترة كانوا يقيمون خارج السور في الاسكندرية الثالثـــة التي بنيت من بقايا الاسكندرية الثانية ، وهذه الأخيرة أنشئت على أنقاض الاسكندرية الأولى (١٨) . وقد تم تهجير معظم سكان المدينة من الميدان الموجود شمالي السور إلى ذلك اللسـان الذى يصل للمدينة القديمة بجزيرة فاروس والذى نما بسرعة بعـد ردم الميناء الشرقي بالرمال . وتعطينا الصورة التي رسمها مهندسو الحملة الفرنسية (١٩) عن المدينة فكرة سليمة عن موقعها في ذلك الوقت .

وكان من نتائج الغـارة التي شنها بطرس لوزنيـان في عام ١٣٦٥ م أن المقريزي وابن دقـاق - اللذين ندين لهما بما أورداه من بيانات دقيقـــة عن المدن المصرية الأخرى - لم يتمكنا من كتابة شيء يستحق الذكر عن الاسكندرية في عصرهما .

إلا أن هناك مصدراً آخر يقوم مقام ذلك ، إذ هو يشرح لنـا - بالإضافة إلى

البيانات التفصيلية عن هذه الغـــارة ـ كيف أن الفرنج الذين نزلوا الاسكندرية فى عام ١٣٦٥ م قد أوقعوا بغارتهم الدمار الشديد بالمدينة . وتوجد هـــذه المعلومات فى كتاب « الإلمام بالإعلام ، فيما جرت به الأحكام ؛ والأمور المقضيه ، فى وقعة الاسكندريه » ، مخطوطة برلين 60 / 359 , II من مخطوطات Wetzstien التى نبهنا إلى وجودها لأول مرة Gildemeister (٢٠) ، وهى المخطوطة التى راجعها P. Herzsohen ثم كتب عنها بحثاً أصدره ونشره له Gildemeister فى « بون » سنة ١٨٨٦ (٢١) . وقد تناول Herzsohen الموضوع بكثير من العناية ، إلا أنه لم يستطع بعد صفحة (٦٧) من بحثه أن يواصل ما بدأ فيه ، إذ مما يلفت النظر أن هذا البحث لا يضيف جديداً (٢٢) .

هذا ، وتقدم لنا مخطوطة « الإلمام » تفاصيل مسهبة عن اسكندرية هذا العصر ، وهى التفاصيل التى سوف ننظر فيها بدقة بغرض الخروج منها بتقديم كل شىء عن الاسكندرية من حيث موقعها ومرافقها وأحيائها المهمة فى ترجمة حرفية . وليس لدينا مصدر عربى آخر نستأنس به ويحتوى على تفاصيل وافيـــة عن الاسكندرية أفضل من مصدر « الإلمام » هذا الذى نأخذ عنه .

وسوف نتناول الموضوع هنا من واقع ما أورده مؤلف « الإلمام » فى كتابه بصفـــة عامة ، وكذلك من واقع الشروح التى قدمها كل من Gildemeister و Herzsohen .

أتى المؤلف إلى الاسكندرية فى عام ١٣٣٧ م واختارها موطناً له . وبقى بها حوالى ثلاثين عاما حتى وقعت الغارة . وقد غادر المؤلف المدينة مع الهاربين من باب البر . ثم رجع إليها بعد انتهاء غارة القبارصة .

ومن الشواهد التى يسوقها صاحب « الإلمام » على ما أصاب المدينة من هلاك ، تلك الجثث الكثيرة التى دفنت بعد الوقعة . وكذلك جيف الحيـــوانات التى كانت مطروحة فى الطرقات بأعداد كبيرة .

وفى فبراير ١٣٦٦ - أى بعد الحادثة بأربعة أشهر ، وحيث كانت الأحداث لازالت عالقة بالأذهان - بدأ المؤلف فى تدوين كتابه (٢٣) ، ولم يحدد نفسه بوصف الحادثة وحدها ، بل نراها قد دفعته إلى استطرادات كثيرة من الناحيتين التاريخية والأدبية . ولهذا ، يعتبر كتاب « الإلمام » موسوعة كبيرة ، إذ يكون الجزءان من نسخة برلين - وتعداد أوراقهما ٢٧٠ ورقة (٢٤) - قسما واحداً من هذا الكتاب ، وبذلك يمكن لنا أن ندرك السبب فى أنه استغرق ثمانى سنوات لينهى كتابه فى عام ١٣٧٤ م (٢٥) .

وقد لاحظت - فيما يختص بطبوغرافية الاسكندرية - أن سور المدينة العربى كان له سبعة أبواب (٢٦) فى القرن الرابع عشر (٢٧) . ويمكن لنا أن نحدد هذه الأبواب من واقع الدراسة التى قام بها Pococke (٢٨) الذى قام بفحص السور فحصاً دقيقاً ، وكذلك بمراجعة ما كتبه علماء الحملة الفرنسية (٢٩) ، وقراءة الخرائط المتأخرة (٣٠) .

ا - السور الشمالى :

١ - باب البحر : وهو المعروف عند علماء الحملة الفرنسية باسم Porte de L'Esplanade ، (أو باب الميدان) ، ويذكره على باشا مبارك فى كتابه (٣١) باسم باب الميدان ، كما يطلق عليه Pococke اسم The Bagnio Gate .

٢ - باب الديوان : وهو إلى الشرق من الباب السابق فى اتجاه الميناء الشرقى ، وقد عرف باسم المبنى الذى كان يوجد بجانبه وهو الديوان ، وهو مذكور عند Machaut باسم Porte dé la Douane (باب الديوان) ، وكان مبنى الديوان (الجمارك) فى ذلك الوقت يقع داخل السور بين باب البحر وباب الديوان ؛ أما Pococke فيطلق عليه The Old Gate .

٣ - الباب الأخضر : ويقع بعد الميناء الغربى (بحر السلسلة) ، وقد عرف

أيضاً باسم باب الغرب ، إذ يطلق عليه Pococke The West Gate .

ب ـ السور الغربى :

٤ ـ باب الخوخة : ويطلق عليه Pococke Gate of Necropolis ، ويسميه علماء الحملة الفرنسية Porte des Catacombes = باب القرافة (٣٢).

جـ ـ السور الجنوبى :

٥ ـ باب السدرة : ويسمى أيضاً باب الشجرة ، ويعرف لدى Pococke باسم Gate of the Pillar ، كما أطلق عليه علماء الحملة الفرنسية Porte de la Colonne = باب العمود ، نسبة إلى أعمدة بومبى المعروفة . ومازال اسم هذا الباب يطلق على شارع باب السدرة فى الاسكندرية الحديثة .

٦ ـ باب الزهرى : وكان يقع إلى الغرب من محطة القاهرة (مصر) الحالية ، وقد أغلق هذا الباب فى عهد متأخر ، ولم يرد ذكره عند Pococke أو فى تخطيط علماء الحملة الفرنسية . وقد أعيد فتحه فى القرن التاسع عشر ، فظهر فى رسومات تخطيط مدينة الاسكندرية الصادرة فى عام ١٨٨٧ من إدارة التنظيم العام (٣٣) باسم باب الصورى . ومن المحتمل أن بعض موظفى التنظيم الاوربيين قد أخطأ فى كتابة الاسم ، فاعتبر حرف z = ص وحرف h = واواً محدودة .

د ـ السور الشرقى :

٧ ـ باب رشيد : ويعرفه Pococke باسم Gate of Rosette أو هو Porte de Rosette .

وقد سميت الأبواب الخامس والسادس والسابع باسم أبواب البر .

ويورد مؤلف « الإلمام » سبعة أسباب أدت ـ فى رأيه ـ إلى قيام حاكم قبرس بهذه الغارة على الاسكندرية :

١ ـ يدور السبب الأول حول الذل الذى وقع على النصارى الذميين حين منعهم السلطان الصالح بن محمد بن قـــلاون فى عام ٧٥٥/١٣٥٤ من الديونة بدواوينهم ، ويبدو أن الفرنج المقيمين بالإسكندرية قـــد اشتكوا إلى الدول النصرانية بما يقع عليهم من أعباء ثقيلة (٣٤) .

٢ ـ السبب الثانى : يبدو أن بطرس القبرصى الذى تولى بعد موت أبيه ريوك (هيـــو الرابع المتوفى سنة ١٣٥٩) (٣٥) قـــد طلب الإذن من السلطان الناصر حسن ليزور مدينـة صور ليجلس على عمود هنـاك ليكتسب لحكمه الصفة الدينية الشرعية عن طـــريق القيام باحتفـال دينى فى هذا المـكان ، إلا أن السلطان حسن رفض هذا الطلب (٣٦) .

٣ ـ ومن المعتقد أن السبب الثالث يتلخص فى أن غـــرابا (٣٧) فرنجياً حاول مهاجمـــة سفينة بضائع تركيـــة أمام الاسكندرية جاءت فى اتجاه الميناء الغربى (بحر السلسلة) وألقت مراسيها قريباً من الباب الأخضر . وقد أرسل إلى الغراب الأمير سيف الدين بلاط ـ حاكم الاسكندرية ونائب السلطان ، بناءاً على إشـــارة تاج الدين موسى بن الخـازن ناظر المدينة ـ قناصلة الفرنج يستخبرونه عن أمره . ثم تم تزويد سفينة الأعداء بالمؤن كطلبهم ، ولكنهم قاموا بعـــد ذلك بنهب بعض سفن المسلمين خارج الميناء . وأنفذ السلطان حسن ـ لمـــا نما إليه خبر الحادثة ـ الأمير سيف الدين بكتمر ، الشهير بالوشـــاق ، إلى الاسكندرية كاشفا ، وافحص الأمر ، فنزل بدار العدل المجاورة لبيت المـــال ، وهى التى كان بناها أيام ولايته للمدينة ، فكشف عن الخبر (٣٨) .

٤ ـ ٦ : أما الأسباب من الرابع إلى السادس ، فإنها تقوم على عدة غارات قامت بها سفن الفرنج فى ناحيتى بوقير ورشيد (٣٩) .

٧ ـ ماقام به العوام بالاسكندرية من قتل بعض الفرنج البنادقة المقيمين بها (٤٠) . وقد دفع ذلك البنادقة إلى المشاركة فى حملة القبارصة (٤١) .

ولما أتت الأخبار إلى الأمـــير زين الدين - حاكم البلد - عن العمارة (٤٢) فى رودس - وكانت دار صناعة الفرنج - قام بتعلية أسوار المدينة بالقرب من البـاب الأخضر ، وارســـل يطلب الإعانة من الأمير يلبغا الخاصكى . وقد قللت هـــذه الاستعدادات التى قام بها الأمير زين الدين من فاعليـة الأخطار ، فى الوقت الذى كان فيه الأمير خليل صلاح الدين بن عـــرام نائب السلطان فى عام ١٣٦٥/٧٦٦ غائباً بسبب الحج - وكان موسم الحج هذا فى نهاية شهر أغسطس من ذلك العـام - حيث ناب عنه الأمير جنغرا ، بإشارة الأتابك يلبغـا الخاصكى . وقد وفد جنغرا إلى الاسكندريةفى شهر يونيه من نفس العام ، فلما دخـل جنغرا الاسكندرية ، رأى طوائفها المتطوعة (٤٣) الحارسة لمينائها تفد عليها بالجـــزيرة (٤٤)، بقسيهم الجرخ الموترة ، وأعلامهم الحرير المنشورة ، مع ما بأيديهم من المزاريق (٤٦) ، والرماح ، والدرق (٤٧) ، والصفاح (٤٨) ، والزرد النضيـــد (٤٩)، ومصفحات الحـــديد . والنفط (٥٠) الطيار الصاعد منه لهب النـار . وأقام الأمير جنغرا فى الغرفة التى على باب مسجد تربة طغية (٥١) ، حيث كان يشاهد أعمال الناس أثناء الليل . بينما كانت الطوائف المتطوعة تأتى تستعرض صفوفهـا بانتظام ، وقد ارتدت أفرادها ملابسهم الزاهية ، فى حين راحت النساء تزغرد تحية لهم (٥٢) .

وفى ٧ من اكتوبر ١٣٦٥ - وكان فيضـان النيل فى إبانه ، ولا يسهل الاتصال بالقاهرة إلا بالطريق الصحراوى - ظهرت بعض السفن فى البحر أمام الاسكندرية من الشرق والغرب ، فاعتقد الناس أنها سفن التجار البنادقـة الذين يأتون بمتاجرهم فى مثل هذا الوقت من العام للمبادلة بما يستورده المسلمون من بهار اليمن ويتعوضون عنها من متاجرهم . ولما لم تدخل السفن الميناء ، انتاب القلق أهالى الاسكندرية . ثم تحولت السفن - أخيراً - إلى الميناء الغـــربى (بحر السلسلة) وألقت مراسيهـا فى منطقة الباب الأخضر (٥٣) .

وقام أهالى الاسكندرية بتعزيز أسوار وأبراج المدينة التى تتجه إلى ناحية البحر برماة قسى الجرخ (الجرخية) ، وأرسل الفـــرنج قارباً من سفنهم ليجس الميناء بقميرة (٥٤) ، فهوجم . وأضيئت أسوار المدينة ليلا (٥٥) .

وظل عدد كبير من أهالى الاسكندرية طوال الليل فى الجزيرة ، كما تواجدت أعداد كبيرة من باعة المأكولات . وفى صباح يوم الجمعة ، وصل جمع من العربان، فصاروا يتطاردون بخيولهم ، ثم خرجوا من الباب الأخضر (٥٦) .

وقد أشار عبد الله ـ زعيم التجار المغاربة ـ على الأمير جنغرا بإخلاء الجزيرة والانسحاب إلى ماوراء أسوار المدينة إلى أن تحضر النجدة العسكرية من القاهرة (٥٧) .

ولكن أصحاب الربط بالجزيرة اعترضوا على هذا الرأى ، إذ لم يرغبوا فى ترك ربطهم ، وبينوا كيف أن المغاربة قد تسببوا فى إخراب بلدهم طرابلس عندما أخذها الفرنج (٥٨) ؛ فرفض جنغرا اقتراح التاجر عبد الله ، وترك النـــاس أمام سور المدينة (٥٩) .

ثم تحركت سفينة قيادة العدو متجهة إلى اليابسة ، ونزل جماعـــة من المغاربة الى الماء وأمسكوا بالسفينة ، فبدأ القتـــال (٦٠) . إلا أن الزراقـين (٦١) لم يستطيعوا حماية المغاربة حماية كافية . فقضى الفرنج ـ بالسفينة ـ عليهم ، وتمكنت سفينـــة العدو نتيجة لذلك من أن ترسوا بالشاطىء ، ثم تبعتها السفن الواحدة تلو الأخرى، فنزلت القوات من المراكب بخيلها ، ورمت الخيالة على المسلمين بالسهام ، يتقدمهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام (٦٢) .

ولم يكن المسلمون قد اعتدوا بأسلحتهم تماماً ، فلم يستطيعوا القيام بأى إجراء مضاد إزاء أصحاب الدرق الرجالة . ثم سارع العربان بالفرار على خيولهم ، كما بدأ الأهالى يتزاحمون هاربين فى اتجاه السور (٦٣) .

وسوف أورد هنا بعض الإشارات المستمدة من تفاصيل عمليات القتـــال التى وصلت إلينا . ومنها أن جماعة من رماة قاعة القرافة المتطوعة حوصرت فى أحـــد الاربطة خارج باب البحر بالجزيرة (٦٤) ، وقامت جماعة المسلمين بالدفاع عن الرباط من أعلاه . وروى ذلك عبد الله بن الفقيه أبى بكر ـ قيم مسجد القشميرى ـ وكان

مخ فيا بصهريج الرباط المذكور قريباً من محمد الخياط الذى لم يمسه الفرنج بسوء مراعاة لصغر سنه ، ولكنهم أخذوه أسيراً . وقد أخبر بهذا - فيما بعد - الشيخ أحمد ابن النشاتى شيخ رماة قاعة القرافة (٦٥) .

وشهد الأمير جنغرا - وقد جرح أثناء القتال الذى دار بالجزيرة - عملية هروب الأهالى ، فندم على ما اقترفه من خطأ . وحاول أن يصل إلى ناحية المطرق المواجه لدار السلطان (٦٦) - غربى الاسكندرية من ظاهر سورها - خائضاً بفرسه فى الماء ومن تبعه من المسلمين فدخل الاسكندرية من باب الخوخه ، فأتى بيت المال - الواقع فى غرب المدينة - وأخذ ما كان فيه من ذهب وفضة وأخرجهما من الاسكندرية (٦٧) .

وأخرج الجبلية تجار الفرنج وقناصلتهم المقيمين بالاسكندرية - وكانوا حوالى خمسين نفراً - من باب البر ، ووجهوهم إلى ناحية دمنهور . وقد أجبرهم الجبلية على الإذعان لهم بعد أن ضربوا - أى الجبلية - عنق واحد منهم (٦٨) .

وفى أثناء ذلك ، نزل العدو على السور الشمالى ، وحاولوا إشعال النار فى باب البحر ، فعمدوا إلى براميل الخشب المفعمة بالمواد المشتعلة يدحرجونها نحوه بأسنة رماحهم ؛ إلا أن المدافعين عن السور تمكنوا من صدهم . فما كان من الفرنج إلا أن تراجعوا متجهين إلى الميناء الشرقي ، حيث وجدوا مكاناً من السور قد خلا من المدافعين ومن خندق يعوقهم عن تسلق هذا الموضع منه . فما كان منهم إلا أن تقدموا فى اتجاه باب الديوان فأحرقوه ثم اقتحموه ، فى الوقت الذى صعدوا فيه على السور بعد أن نصبوا عليه السلالم الخشبية المفصلة [المركبة بعضها فوق بعض (٦٨أ)] ويرجع السبب فى ترك هذا الموضع بدون حراسة إلى أن شمس الدين بن غراب - كاتب الديوان - وشمس الدين بن أبى عذيبة - ناظره - قد أمرا بإغلاق باب الديوان المذكور خوفا من أن يتمكن التجار من تهريب بضائعهم منه إلى المدينة دون أن يسددوا مايفرض عليها من رسوم . ولقد شاع الاعتقاد - بعد الوقعة - أن ثمة خيانة حدثت ، إذ يورد مؤلف « الإلمام » أن حاكم قبرس قد حضر

بنفســه إلى الاسكندرية كأحـد التجـار ، ونزل عنـد ابن غــراب ، فأتاح له ذلك فرصة التعرف على أحوال المدينة . وعلى كل حال ، تأثر الأمير صلاح الدين ابن عرام بما شاع عن خيانة ابن غراب ، فاتخذ ذلك شاهــداً على إدانته ، فأمر بأن يوسط (٦٩) ابن غراب وتعلق جثته على باب رشيد . ومما يلفت النظر عن هــذه الشائعة التى سرت بين المصريين ، ما أورده Machaut عن شخص يدعى بيرسفال الـكولونى Perceval de Coulogne - وكان قد أخذ أسيراً قبل الوقعة - من أنه كان فى استطاعته التجول فى المدينـة بحرية تامة ، فساعده ذلك على أن يحيط الملك القــبرصى علماً بمواطن ضعــف المدينـة فى شرق الســور الشمالى (راجـع : Vs. 2766-2799) . إلا أن ثمـة حقيقـة لا يمكن تجاهلها ، وهى أن الابواب التى كان ينتظمها هذا السور كانت مغلقة بإحكام لدرجة استحالة دخــول أى فرد من الجزء الباقى من السور إلى المواضع الأخرى بين هذه الابواب (٧٠) .

وحالمـا رأى المسلمون العـدو على السور ، اعتقدوا أن المدينة قــد سقطت ، فراحوا يتلمسون الخلاص هاربين من أبواب البر الثلاثة : باب الســدرة ، وباب الزهرى ، وباب رشيد . فتمكن الفرنج بذلك من احتلال باب السدرة حيث نصبوا عليه الصلبان . وقد سجل لنا Machaut (Vs. 2980 ff) ما قام به الفرنج من هجوم فى اتجاه باب السدرة حتى وصولهم إلى القناة التى يقــوم عليها الجسر الواقع جنوبى هذا الباب (٧١) .

ثم تحول الفرنج يقتحمون أبواب المنازل المغلقــة ، ينهبون ما فيها ، كما نهبوا المتاجر والفنادق ، وحملوا ماوجدوه على الجمال والبغال والحمير ، وقتــلوا من كان مختبئاً ، وعرقبــوا الخيول والثيران ، وأشعــلوا كذلك النيار فى القياسر (٧٢) والخانات (٧٣) ، وكسروا القناديل بالمساجــد والجوامع ، وثبتوا عـلى الأسوار أعلام الصلبان ، وأسروا الـكثيرين من الأهالى . وقد استغرقت عمليات السلب والنهب والخطف من بعد ظهيرة يوم الجمعة حتى يوم السبت (٧٤) الموافق ثانى صفر (٧٥) .

ولمـا كان لما أورده مؤلف « الإلمام » - عمـا أنزله الفرنج من تدمير بالمدينة - أهمية بالغة ، رأينا أن نسوقه هنا مترجماً ترجمة حرفية :

(... فكان مما أحرقوه : حوانيت الصرف بكمالها ، وسوق القشاشين بالمداريج(٧٦) ، والحوانيت الملاصقة لقيسارية الأعاجم من خارجها من الجهة الشرقيـة ، وحوانيت شارع المرجانيين وبعض فنادقه ، وفندق الطيبية (٧٧) ، مع فنـــدق الجوكندار ، وفندق الدماميني بسوق الجوار (٧٨)، ووكالة الـكتان المقابلة للجامع الجيوشي (٧٩) بالقــرب من العطارين ، مع سوق الخشــابين . وأحرقوا أيضاً درابزى (٨٠) مدرسة ابن حباسة ، مع سقف الإيوان ، وعبثوا بكل ناحية ومكان ؛ وأحرقوا باب مدرسة الفخر القريبة من باب رشيد ، وعبث بإحراق حوانيت المحجة كل عاج مريد (٨١) ... (١٠٨ب) ثم إن الملاعين أحرقوا فندق الـكيتلانيين (٨٢) ، وفندق الجنويين ، وفندق الموزة ، وفندق المرسيليين ، فصارت النار تعمل في البندق والبضائع التي لم تجد لها الفرنج محملا معهم لإشحان مراكبهم بما أخذوه من أموال الاسكندرية . ثم كسرت الفرنج أيضاً حوانيت الشماعين (٨٣) والبياعين (٨٤) ، بعــــد نهب قياسر البزازين ، وكسروا مافيها من الأوعيـــة والأواني والأحقاق والبراني ، فصارت ملقاة مطروحة في الطرقات ، قد سال مافيها من زيت وعسل وسمن وغــــير ذلك . وكسروا أيضاً حوانيت الصاغة ، وأخـذوا مافيها من مال ومصـاغ . كما أخذوا من حوانيت الصرف مافيها من ذهب وفضة ، ونهبوا أيضاً الحرير الذي قدمت به تجار الأعاجم وغـيرهم إلى الاسكندرية ، وكان ذلك عدة قناطـــير . ونهبوا من الدور الأموال والأقمشة والمصاغ والفرش والبسط والنحاس وغيره ، وأخذوا معهم باب المنار الذي كان عمـره الأمير صلاح الدين بن عـرام قبل الوقعـة على الأساس الذي كان أسسه الملك المنصور قلاون (٨٥) وبطلت عمارته ، فعمل ابن عرام على الأساس المذكور حصناً دائراً وعمل له الباب المذكور . ثم أخـــذ الفرنج شبابيك قبة تربة الأمير طغية التي بالجزيرة ، وأحرقوا سقوف الربط التي بها - وهي التي خافت عليها أصحابها (٨٦ من الفرنج قبل نزول الفـــرنج ٨٦) من مراكبهم - وكسروا قناديلهـا وقناديل المزارات . وأفسدوا قصور الجزيرة وتربها ، وكسروا أعمدة قبة منبر (٨٧ مصلى العيد وعمودى ٨٧) ضرائح قبة تربة الأمير طغية والأمــــير بلاط اللذين (٨٨) فيهما تاريخ وفاتهما ، وكانا مموهين بالذهب واللازورد . وقلعوا حلقتي باب المدرسة

الخلاصية التى عمرها نور الدين بن خلاص ـ وكانا من النحاس المخرم ـ فعمل لباب المدرسة المذكورة غيرهما بعد عدة أشهر من حين الوقعة ، وأخذوا منها كرسى الربعة وبابها ، وكانا من النحاس الأندلسى المخرم ، المنزل فيهما البقلات (٨٩) الفضة بدايرهما ، لم ير مثلهما حسن صنعة وتدقيق تخريم ، (١٠٩ أ) وتركوا أجزاء الربعة الثلاثين جزءاً (٩٠) مطروحة بالمدرسة المذكورة ، لم يأخذوا منها جزءاً واحداً .

وصعدوا صومعة المدرسة النابلسية ، فوجدوا فيها (٩١) جمال الدين ـ ابن بانيها ـ مختفياً منهم ، وكان شيخاً كبيراً ضعيف البنية ، فألقوه على رأسه من أعلاها إلى الأرض ، فاندقت عنقه ، فمات شهيداً ـ رحمه الله ـ وقتلوا من وجدوه بالجوامع والمساجد .

وأقاموا بالاسكندرية المرابد (٩٢) ، فقتلوا الناس فى الدور والحمامات والشوارع والخانات . وكانت الفرنج تخرج بالنهب من الاسكندرية إلى مراكبهم على الإبل والخيل والبغال والحمير . فلما فرغوا من النهب ونفضوا أربهم (٩٣) من البلد ، طعنوها بالرماح ، وعرقبوها بالصفاح ؛ فصارت مطروحة بالجزيرة والبلد (٩٤) ، لم يعلم لها عدد ؛ فهلكت وجافت ، فأحرقتها (٩٥) المسلمون بالنار لتزول رائحة جيفها .

ثم إن الفرنج تحصنوا بمراكبهم بعد وفرها وإشحانها بما نهبوه ، وكانت تزيد على سبعين مركباً (٩٦) ، وتركوا بالساحل فضلات البهار التى لم يجدوا لها محلا ، فرجع إلى أربابه ، من وجد علامة (٩٧) عليه أخذوه .

ثم إن مراكب الفرنج ثقلت بما فيها ، فصاروا يلقون مافيها (٩٨) فى البحر ـ على ما قيل ـ لتخف من كثرة الوسق . وكانت الغواصون يرفعون النحاس وغيره بناحية بوقير .

ولولا لطف الله ـ تعالى ـ بعباده المسلمين ، بحرقهم باب رشيد وباب الزهرى ، كانت الفرنج ملكت البلد ، وحصل التعب فى خلاصها { منهم كما حصل } (٩٩) فى طرابلس الغرب (١٠٠) ومدينة أنطاكيا ببر التركية . . . (١٠١)

ولطف الله - تعالى - { أيضاً بعباده المسلمين } (٩٩) فى عدم معرفــة الفرنج لقصر السلاح (١٠٢) الذى بالموضع المعـروف بالاسكندرية بالزريبة (١٠٣) ، فــلو فهموه أحرقوا جميع مافيه من السلاح المدخر من عهد (١٠٤) الملوك السالفة - رحمة الله عليهم - فلقد وضعوا فيه من الأسلحة الكثيرة ماليس لعددها حصر .

ذكر أبو العباس أحمد - شيخ رماة قاعة القرافـة المرصدة (١٠٥ لسلاح الجهاد المتطوع به ١٠٥) : بها ستون (١٠٦) ألف سهم من بعض السهام التى فى أحد بيوت قاعة من قاعاته . قيل إن فيه عدة قاعات ، فى كل قاعة عدة بيوت ، فى كل بيت آلاف مؤلفة من السهام ، إلى غيرها من السيوف ، والرماح ، والأتراس ، والخــوذ ، والعنــابز (١٠٧) ، والزرد ، والزرديات (١٠٨) ، (١٠٩ ب) والأطــواق ، والقرقلات (١٠٩) ، والسواعــد (١١٠) ، والركب (١١١) ، والســاقات (١١٢) ، والأقدام الحديد (١١٣) والقسى الملوابة (١١٤) ، والجرخ (١١٥) ، والركاب (١١٦) ، والأعلام ، مالاينحصر بالأقــلام . ثم فيه أيضاً من حجارة العـــلاج (١١٧) ، والمدافع ، والنفط ، وحيل الحروب ومكائدها (١١٨) كثير (١١٩) .

فلو علمت به الفرنج أحرقته سريعاً ، فحصل اللطف الكبير ، من اللطيف الخبير ، لعدم معرفتهم إياه بعد أن أتوا إلى بابه ، ظنوا أنه أحد أبواب المدينة ، خافوا من كسر بابه ليكون وراءه كمين (١٢٠) يطبق عليهم (١٢١) .

قال المؤلف - غفر الله له ولوالديه والمسلمين أجمعين -: حـــدثنى الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن يوسف - حارس القصر المذكور ، ويعرف بابن قراجا - قال :

« كنت بمفردى لما دخلت الفرنج الاسكندرية ، فأغلقت بابه ، وقـرأت حزب سيدى الشيخ الصالح أبى الحسن الشاذلى (١٢٢) ، وإذا الفرنج أتوا إلى الزريبة (١٢٣) فيهم خيالة ومشاة وكنت صعدت أعلى (١٢٤) القصر ، فصرت أنظر إليهم من شقوق فى حائطه ، فطلع بعضهم على زلاقـــة بابه ، وصاروا يتشاورون فى أمره . وكنت أعددت لنفسى مكاناً أختبىء به إن دخلوه ، لكن خفت بأن يحرقوه فأهلك بالنار ؛ فوقفوا ساعة ، وتركوه ومضوا . . . »

نعود إلى ذكر ما أحرقته الفرنج أيضاً بالاسكندرية : وذلك أنهم أحرقوا أبواب البحر (١٢٥) الأول والثانى ، وأبواب الباب الأخضر الثلاثة ، وباب الخوخة ، والمجانيق (١٢٦) التى كانت بالصناعتين الشرقية والغربية . وكانت أهل الاسكندرية وقت هزيمتهم أخرقوا أغربة كانت بالصناعة الشرقية لئلا تأخذهم الفرنج . فلما رأتهم الفرنج مخروقة ، أحرقتهم بالنار . ثم أحرقت الفرنج أيضاً دار الطراز والديوان بعد أن أخذوا ما فى دار الطراز من الاستعمالات (١٢٧) الرفيعة الأثمان ، وأحرقوا أيضاً قلعة ضرغام (١١٠ أ) والمكان المعروف بالكدس (١٢٨) وكان برسم الاستعمالات أيضاً » (١٢٩) .

وقد ذكر مؤلف « الإلمام » أن الفرنج مكثوا بالاسكندرية حوالى ثمانية أيام ، ثم سارعوا بالرحيل عندما شاهدوا اقتراب الجيش المصرى لنجدة المدينة ، فأقلعت سفنهم تحمل - علاوة على مانهبوه من المدينة - نحو خمسة آلاف أسير استرقوهم وباعوهم فى بلاد الفرنج (١٣٠) ، كما يذكر المؤرخون المصريون تلك الاستعدادات الحربية الكبيرة التى قام بها سلطان مصر بعد الوقعة ؛ فقد حضر السلطان إلى الاسكندرية ، وأشرف بنفسه على ترميم ما خربه الفرنج ودمروه (١٣١) . وقد أرغم التجار النصارى على الاسهام فى جمع مبالغ كبيرة من الأموال لفداء الأسرى ، كما ألقى وجوههم فى الحبس ، وأنفذ - فى نفس الوقت - البطريرك إلى قبرس ليرأس مباحثات افتداء الأسرى . وانتهى الأمر أخيراً بعودة العلاقات التجارية بين مصر والدول الأوروبية المسيحية .

وكنت قد أشرت أكثر من مرة إلى أن الاسكندرية لم تتمكن من استعادة مكانتها السابقة رغماً عن المحاولات العديدة التى بذلت فى ذلك ، ورأينا كيف انكمشت المدينة وزادت إقفاراً داخل سورها العربى . ولقد أدى اكتشاف البرتغاليين للطريق البحرى إلى جزر الهند الشرقية إلى أن فقدت مصر مركزها التجارى ، كما فقدت بعد ذلك استقلالها لتصبح مجرد ولاية تابعة للامبراطورية التركية (العثمانية) فى عام ١٥١٧ . وقد أفضى هذا كله إلى أن تحددت المدينة بذلك

الميدان الصغير الموجود خارج الأسوار ، ولم يبلغ تعـــدادها سوى بضعة آلاف من السكان .

وقد كان ماعرضناه الآن بمثابة مثل حى عن سقوط مدينة أثرية عالمية ، تمتعت بمكانة عظيمة فى العصور الوسطى . ويهمنا من كل ذلك أننا تتبعنا عملية سقوطها بشىء من التفصيل ، بعد أن أدى هجوم الفـــرنج عليها إلى افتقارها الكامل وتدهور القسم القديم منها تدهوراً كاملا (١٣٢) .



الحـــواشى*

١ — { أصدر Kahle هذا المقال بعنوان :

Die Katastrophe des Mittelalterlichen Alexandria, in Mélange Maspero, III, Orient Islamique, pp. 137 - 54, Institut Français, Le Cairé 1940.

ـ المترجـــان }

٢ — { راعينا عند ترجمة المقال من الألمانية إلى العربية ـ والذى يحتوى أيضاً على نصوص بالفرنسية الحديثة، والفرنسية الوسيطة، واللاتينيـــة ـ ألا نغفـــل إيراد النصوص من نسخة برلين لمخطوطة « الإلمام » التى رجـع إليها Kahle فى مقاله حتى تسهل المقارنة بما أورده . وفى نفس الوقت، قمنا بالتعليق فى بعض المواضع وبشرح بعض المصطلحات والألفاظ لجلاء معناها . ويهمنا أن نشـــير هنا إلى أن نسخة برلين التى استأنس بها Kahle لاتحمل اسم مؤلفها (وهو محمد بن قاسم بن محمـــد النويرى المالكى السكندرى) مما حدا بالـكاتب إلى اغفال اسمه فى مقـاله، ولـكنه يستدرك ذلك فى الحاشية الموجودة بآخر هامش فى هـذا المقال . وممـا يلفت النظر أيضاً، أن نسخـة الهند من مخطوطة « الإلمـام » تحمل خطأ اسماً غير اسم المؤلف، فجـــاء فى صفحة العنوان : (. . . تأليف الشيخ الإمام، سلطان العلماء الأعـــلام، رحلة (كذا) المحدثين القدوة، أبو عبد الله محمد بن عمر بن زين الدين الواقدى، رحمـة الله عليه) . وتوجـد نسخـة ثالثة محفوظـــة بدار الـكتب المصرية بالقاهرة تحمل رقمين هما : ٢٨٥٥٨ (عمومية تاريخ) و ١٤٤٩ (خصوصية تاريخ) لم يثبت فيها أيضاً اسم المؤلف، إذ يرد فى صفحة العنوان : (تأليف الشيخ الإمام العلامه، العمدة الهمام الفهامه ؛ رحمه الله تعالى وأرضاه، وجعل الجنـــة مثواه ؛ وأعاد علينا من بركته، آمين) . ولـكن فى صفحات النسخ

* كل ماجاء محصوراً بين هلالين { } بالحواشى هو من تعليقات وشروح المترجمين .

الثلاث : برلين ، والهند ، ودار الكتب ، ما يثبت به اسم المؤلف وسقط رأسه - النويرة - ونزوحه إلى الاسكندرية حيث أقام وشاهد بعض أيام الوقعة المذكورة . أما العنوان الكامل للمخطوطة ، فهو يختلف فى قليل - أو كثير - من نسخة إلى أخرى ؛ فهو فى نسخة برلين - التى رجع إليها Kahle -: (هذا كتاب الإمام العلامة فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقوع الاسكندرية) ؛ وفى نسخة الهند (كتاب مرآة العجائب وأحاسن الحمار (كذا) ... وذلك بالإلمام ، فيما جرت به الأحكام ؛ المقضيه ، فى وقعة الاسكندريه ؛ مع ما أضيف إلى ذلك من الاستطرادات ، المستحسنات ؛ الحاوية لأصناف الفنون والعلوم الأدبية والتاريخ والأنساب والأخبار والمسالك ، وتدبير الممالك ؛ والملوك والدول والرعية ، وغير ذلك مما لا بد للفاضل الرا . . . عليه ، فيما يحتاج إليه ؛ ولا يستغنى عنه) ؛ وفى نسخة دار الكتب : (كتاب الإلمام ، بما جرت به الأحكام ؛ المقضيه ، فى وقعة الاسكندريه ، فى سنة سبع وستين وسبعمايه ، وعودها إلى حالتها المرضيه ؛ مع ما أضيف إلى ذلك من الواردات ، المستطردات) . وتوجد نسخة رابعة من هذا الكتاب - عبارة عن مستخرج لا يزيد عن بضع ورقات - هى نسخة المتحف البريطانى بلندن تحت رقم ٦٠٦ ، وتحتوى على وصف لبلاد الهند . هذا ، وتوجد صور شمسية بمكتبة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، للنسخ الثلاث الأولى المذكورة ، فتحمل نسخة برلين رقم ٦٦٧ م ؛ ونسخة الهند رقم ٧٣٨ م ؛ ونسخة دار الكتب (وهى الجزء الأخير منها) رقم ٧٢٧ م . أما نسخة لندن ، فيوجد منها صور شمسية محفوظة بمكتبة ورثة المرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال .

ولعل أصح عنوان لكتاب « الإلمام » هو ما ورد فى نسخة برلين (١٠ أ) حيث ينص عليه النويرى فيقول : « . . . ولما كمل هذا الكتاب ، الذى هو نزهة لأولى الألباب ، سميته : (كتاب الإلمام بالإعلام ، فيما جرت به الأحكام ؛ والأمور المقضيه ، فى وقعة الاسكندريه ؛ مع ما أضيف إلى

ذلك من الاستطرادات المفيدات ، والموضوعات المستحسنات . . . » بينما ورد فى (١٠ ب) من نسخة الهند : (كتاب الإلمام ، فيما جرت به الآحكام ، والأمور المقـ[ضية ، فى وقم]عة الاسكندريه ؛ مع ما أضيف إلى ذلك من الاستطرادات ، المستحسنات . . .) .

ولا يفوتنا أن ننوه هنا بأننا رجعنا فى مواضع من الترجمة والتعليق إلى أستاذينا : الدكتور السيد عبد العزيز سالم أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد بكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، والأستاذ راشد فضيل أمين المتحف بالسكلية ، فلزمنا الشكر لهما لما بذلاه من مساعدة ـ لا تنسى ـ لتوضيح بعض ما غمض علينا . كما لا يفوتنا ـ أمانة ـ أن نشير ، إلى أن أستاذنا الراحل الجليل ، الدكتور جمال الدين الشيال ـ أستاذ التاريخ الإسلامى ، وعميد كلية آداب الاسكندرية سابقاً ـ كان على نية إخراج كتاب « الإلمام » كاملا بعد تحقيقه ؛ فقد شرع فيه ، ولكن المنية عاجلته ـ رحمه الله ـ قبل الفراغ منه : المترجمان ﴾ .

٣ ـ Alexandrea ad Aegyptum, Bergamo, 1914, p. 49,54.

٤ ـ نورد مثالا على ذلك ما أورده Breccia فى معرض كلامه على ما ساقه محمود الفلكى عن رصف شوارع المدينة ، إذ يقول Breccia : « يجب أن نلاحظ ـ قبل كل شىء ـ أن عملية رصف شوارع المدينة التى كشف عنها محمود الفلكى لا تنتمى للعصر البطلمى ، وإنما ترجع إلى العصر الرومانى » (انظر : ص ٦١) . ومن المشاهد ، أن محمود الفلكى لم يلتفت إلى ضرورة الاهتمام ـ بالدرجة الأولى ـ بتخطيط شوارع المدينة العربية ، إذ يقول خليل الظاهرى ـ الذى أصبح حاكما للاسكندرية فى عام ١٤٣٥ ـ فيما يختص بهذه الشوارع : « وهى مدينة مركبة على العمد ، وشبهها بعضهم برقعة الشطرنج لأن جميع شوارعها وأزقتها نافذة بعضها إلى بعض » (زبدة كشف الممالك ، نشر Ravaisse ، باريس ١٨٩٤ ، ص ٤٠) .

ومن المؤكد أن معالم هذه الشوارع كانت ظاهرة بوضوح فى ذلك الوقت بالرغم

عما أصابها من تدمير على يد الفرنج ، بينما اختفت معالمها نهائياً فى القرون التالية .
هذا ، وتطابق شوارع المدينة الرئيسية فى العصر العربى ما كان يعرف قديماً
بالشوارع الرومانية . ومن الواضح أن محمود الفلكى عندما شرع فى أبحاثه عن
تخطيط المدينة ، كان قد شاهد ـ أول ما شاهد ـ تلك الشوارع التى لا تحمل
سوى الطابع الذى كانت عليه فى العصر العربى .

٥ ـ راجع مقالى :

Zur Geschichte des mittelalterlichen Alexandria (Der Islam, Bd. XII, Berlin 1921, S. 29 ff) .

٦ - The Travels of Ibn Jubair. Ed. Wright - de Goeje, 1907, S, 40 - 43,

٧ - Ed. Defrémery et Sanguinetti, I, 27 - 48.

٨ - Ludolfi Rectoris ecclesiae parochialis in Suchem : De itinere Terrae Sanctae liber. Nach alten Handschriften berichtigt herausgegeben von Friedrich Deychs, Bibliothek des Litterarischen Vereins in Stuttgart, XXV, 1851, S. 35.

٩ - Monuments pour servir à l'Histoire des Provinces de Namur, de Hainot et de Luxembourg, t. IV , Bruxelles 1846, p. 351 f.

١٠ - Tucher (1479) ; vgl. Feyerabend, Reyssbuch, S. 368 f.

١١ - Felix Fabri (1483) ; vgl. Evagatorium . . . Stuttgart, 1879, III, 138 ff.

١٢ - كان بيرى رئيس ـ أو الرئيس بيرى ـ أحد أمراء البحر العثمانيين

فى عهد السلطان سليمان القانونى ، وعين فى سنة ٩٥٩ هـ / ١٥٥٢م قبودانا ببحرية الإيالة المصرية ، وله كتابان فى الجغرافية عن كل من بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط ، تناول فيهما بالدراسة تياراتهما البحرية ، والأعماق فيها ، وموانيهما ، كما عنى فى كتابيه بوصف أحسن أماكن رسو السفن فى البحرين المذكورين وذلك من واقـــع مشاهداته الشخصية ؛ انظر : Edward ; S. Creasy, History of the Ottoman Turks, p. 179, London 1878 اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، ص ٤١ ، هـ ١ ، الطبعة الأولى ، بولاق ، القاهرة ١٣١٤ هـ المترجمان} .

١٣- Paris, Suppl. turc 956, fol. 357 b / 358 a.

{انظر هـــذه الخريطة التى نشرها Kahle فى أواخر لوحات نفس الدورية التى أصدر فيها مقاله تحت عنوان : Alexandria nach Piri Re'is - المترجمان} .

١٤- كان أصل هذا الجامع كنيسة هى كنيسة ثيوناس Theonas التى شيدت فى الفترة مابين ٢٨٢ و ٣٠٠ م وكانت مقراً للبطريركية فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، ثم تحول بعدها مقر البطريركية إلى كنيسة Caesareum . ويوجد لهـــذا الجامع تخطيطات ورســوم فى الأطلس الموجـود فى Description de l'Egypte, Antiquités, V, pl. 36 f. . وقد حول محمد على هذا الجامع إلى مستشفى لقوات الجيش الـــبرية والبحرية . أما إسماعيـــل فقد جعل منه فى عام ١٨٧٢ تكية للفقراء ومعسكراً للشرطة . ثم منحه توفيق فى عام ١٨٨٤ لجماعة الفرنسيسكان الذين قاموا ببناء كنيسة فيها تخليداً لذكرى القديس فرانسيس الأسيسى Franz von Assisi . راجع على باشا مبارك ، ج ٧ ، ص ٤٣ ؛

Neroutsos Bey, S. 61-65 ; Botti, S. 98 ff. ; Breccia, S.45 f.

١٥- Feridûn, I, 438 (1. Druck), I, 490 (2. Druck).

١٦- Helferich (1565) bei Feyerabend, Reyssbuch S. 396 f.

١٧- De Maillet, Description de l'Egypte . . . par Le Mascrier, Paris, 1735, p. 149 f.

١٨- ﴿ المقصـــود بالاسكندرية الأولى اسكندرية العصرين البطـــلمى والرومانى ؛ وبالثانية الاسكندرية الإسلامية التى أقيمت مبـانيها على أنقـاض الاسكندرية الأولى ؛ وأما الثالثة فهى الاسكندرية فى العصر الإسلامى المتأخر والتى شيدت مبانيها من مخلفات الاسكندرية الثانية - المترجمان ﴾ .

١٩- Description de l'Egypte, 2ᵉ éd., Atlas, Etat Moderne. t. II, pl. 84.

٢٠- راجـــع :

J. Gildemeister, Uber arabisches Schiffswesen, in Nachri. chten der Kgl. Ges. d. w. in Gottingen, vom 28. Juli 1882, S. 425 - 448.

٢١- P. Herzsohen, Der Uberfell Alexandrien's durch Peter I, Konig von Jerusalem und Cypern, Bonn 1886.

٢٢- اهـــتم von Georgius J. Capitanovici بمخطوطــة الإلمام ، فأصدر كتابه : Die Eroberung von Alexandria (Iskandrije) durch Peter I. von Lusignan, Konig von Cypern 1365, Berliner Diss. von 1894. ولم يكن يعرف اللغة العربيـــة ، فاضطر إلى الاستعانة بتلك النبـذ المبتسرة التى قدمها له B. Moritz ، ممـــا أدى إلى انحصار ما كتب فى نطاق ما أخذه عن الكاتب الأخير .

٢٣- ﴿ يترجم النويرى لنفسه فى بعض المواضع من كتابه « الإلمـام » ، فيذكر - ضمن مايذكر عن نفسه - أول دخوله الاسكندرية ، وسبب تأليفه

لكتابه ، وتاريخ البدء فيـــه والفراغ منه ، فيقول :

« (١٢٠ أ) . . . وكان السبب لتأليف هـــذا الكتاب ، طـــول إقامتى بالاسكندرية ، وحبى لهـــا ولأهلها ، فإنى دخلتهـا فى ذى الحجـة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، بسبب زيارة الصالحين ورؤيتها . . . (١٢٠ب) فأحببتها حينئذ وسكنتها ، وألفت هذا الكتاب بهـا ، وابتدأته فى جمادى الآخر سنة سبع وستين وسبعمائة ، إلى فرغت منه فى ذى الحجة سنة خمس وسبعين وسبعمائة. ثم اخترت سكناها أيضاً حبـا فى المرابطة لقول عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — : « فرض الجهـاد لسفك دماء المشركين ، والرباط لحقن دماء المسلمين ؛ وحقن دماء المسلمين أحب إلى من سفـــك دماء المشركين » . ثم ازددت فى سكناها حباً لقول الشاعر :

أرى الاسكندرية ذات حسن	بديـــع ماعليـه من مزيد
هى الثغر الذى يبدى ابتسـاما	لتقبيـل العفـاة من الوفـــود
إذا وافيتهـــا لم يبـق همـــا	بقلبك مـــذ تراها من بعيـد
حللت بظاهـــر منهـــا كأنى	حللت إذاً بجنـات الخـــلود
فلا بئر معطلة وكـم قـــد	رأيت هنـاك من قصر مشيـد
ببيـــاض يملأ الآفاق نـــورا	يبشر برقـه بسحـاب جـــود
فأقسم لو رأتهـــا مصر يوما	لكاد[ت] أن تغيب عن الوجود
وكـم قصر بها أضحى كحصن	منيـــع لا كزرب من جريد
يرص فصوصـه بانيه رصــــاً	يفضـــله على نظم العقـــود
لها ســـور إذا لاقى الأعادى	يقـــابلهم بوجه من حـــديد
هو الفلك استدار بها وكم قـد	رأينـــا فيـه من برج سعيـد
أحاط بسورهـا بحّـــر أجاج	ومنهل أهلها عـــذب الورود
هم السـادات لا يرجـى ويخشى	سواهم عند وعـــد أو وعيد

لجمالـــــنى حسنها وكثرة خيرها أن سكنتها ، وتأملت بها ؛ ونسخت لأكابرها في ساحتها المنيره ، كتباً كثيره ؛ ثم خرجت منها مع من خـــــرج من الوقعة من باب برها ـ لعدم إلقاء النفس في المهلكة ، لما لم يبق في أهلها للقتـــــال حركة ـ ثم رجعت إليها لأرى صدفة درها كيف صارت ، بعد فعل الكفرة بها لما تعدت عليها وجارت ؛ فرأيت ماحير عقلي ، وأذهل لبي ؛ من خراب بعض أماكنها ، وحريق بعض جوانبها ؛ وجيف البغـال والخيول ، وتغير الحال الذي ورث الذهول ؛ وأما القتلى فقد دفنوا قبـــــل وصولي إليها ، لم أر غير قبورهم بداخلها ؛ قد دفنوا لتغيرهم ، وعدم استطاعة حملهم لتزاحمهم ؛ لجذبتني الغيرة بأسبابها ، ودعتني (١٢١ أ) الحمية لأربابها ، إلى تأليف هذا الكتاب بها ؛ ليقف عليه من يأتي من المسلمين بعـــــد عصرنا هذا ليعلموا به ما اتفق بها فيما مضى من الزمان ، ولتجتهـد ملوك مصر الآتية بعـــــد ملوك عصرنا في حفظها من الفرنج بتكثير القياد بها والتركيز فيها لحراستها ، كفعل عمرو بن العاص حين فتحها ؛ فإنه حفظها على طول الزمان ، بقبائل العربان ؛ والله ـ تعالى ـ يجعلها في حفظ وسلامه ، إلى يوم القيامه ؛ بمنه وكرمه ليقام بها دين الإسلام ، على مر الأيام » .

ويهمنا أن نشير هنا إشارتين ؛ أما الأولى ، فهي حول منشيء الأبيات المذكورة في نص « النويري السكندري » ، فهو الشاعـــــر المصري ـ الذي ختمت به شعراء الفسطاط ـ « الجمال أبو الحسين الجزار يحيى بن عبد العظيم » ، من شعراء القرن السابع الهجـــــري ؛ انظر ترجمته وطائفة من شعره في : ابن سعيد الأندلسي (علي بن موسى) ، المغرب في حلى المغـرب ، تحقيق زكي محمد حسن وشوقي ضيف وسيدة اسماعيل كاشف ، ص ٢٩٦ - ٣٤٨ ؛ وفي الأبيات المذكورة هنا ، انظر فيه : ص ٣١٢ - ٣١٣ ؛ وفي المصادر الأخرى التي تعرضت لترجمته ، راجع فيه : ص ٢٩٦ ، ه ١ .

وأما الإشارة الثانية ، فهي تدور حول ما ذكره « النويري السكندري »

هنا عن تاريخ انتهائه من كتابه « الإلمام » ، فهو يحدده بشهر ذى الحجة سنة خمس وسبعين وخمسمائة (مايو - يونية سنة ١٣٧٤ م) . ولكن الشواهد تدل بصورة قاطعة على أنه لم ينته من كتابه إلا فى سنة ٧٧٧ ﻫ أو فى سنة ٧٧٨ ﻫ على أقصى تقدير ، إذ يسوق « النويرى السكندرى » نفسه طائفة من النصوص التى تؤيد هذه الشواهد ، وليس هناك تفسير لذلك سوى أن يكون قد انتهى من جمع مادته فى العام الذى يذكره (وهو سنة ٧٧٥ ﻫ) كما انتهى من تسجيلها فى نفس العام ، ثم شرع يدون ما استجد من أحداث حتى عام ٧٧٧ ﻫ ؛ إلا إذا ذهبنا إلى أن ناسخ الكتاب هو الذى أضاف الوقائع المذكورة حتى عام ٧٧٧ ﻫ . ولكننا نستبعد ذلك من واقع ملاحظاتنا أولا على أسلوب « النويرى السكندرى » فى سرده للأحداث ، إذ أن طريقة العرض التى يتبعها فى السرد واحدة ؛ وثانياً من واقع أن ناسخ « نسخة دار الكتب » ينص على أنه ينقل مباشرة عن النسخة التى كتبها المؤلف بخط يده ، ولو كان ثمة تغيير فى خط هذه النسخة - التى ينقل عنها الناسخ - لكان أشار إليها كما هى العادة فى مثل هذه الأحوال ، فهو يقول فى حرد الكتاب (لوحة ٢٩٠ أ) : « وكان الفراغ من كتابته من نسخة بخط مؤلفه رحمه الله . . . الخ » :

يقول « النويرى السكندرى » (نسخة الهند ، لوحة ٢٦٤ أ) : « ولم يزل التازى المذكور (يقصد ابراهيم التازى رئيس دار الصناعة بالاسكندرية) من أبطال الاسكندرية ، إلى أن توفى بها فى أواخر جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وسبعمائة . . . الخ » . ويقول أيضاً (نسخة دار الكتب ، ٢٨٧أ) : « وفى سنة خمس وسبعين وسبعمائة ، بدأ الفناء من شوال فيها ، وتتابع إلى ربيع الأول من سنة ست وسبعين وسبعمائة . . . الخ » . كما يقول (نسخة دار الكتب لوحة ٢٨٤ أ) : « . . . ثم إن ملك الأمراء صلاح الدين ابن عرام أقام أشهراً ، وعزل فى المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة ، ثم أعيد

إليها - ملك أمراء أيضاً - قدخلها فى ليلة الجمعة تاسع عشر رجب سنة سبع وسبعين وسبعمائة . . . الخ » .

ويجرنا هذا إلى تحديد تاريخ وفاة « النويرى السكندرى » ، وهو تاريخ مجهول حتى الآن ، لم تتعرض له المصادر البيبلوجرافيـة التى ذكرت كتابه « الإلمام » (راجع فى ذلك : حاجى خليفـة (مصطفى بن عبد الله الشهير بكاتب جلبى) ، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، نشر فلوجل Flugel ، ج ٢ ، ص ١٠٧ ؛ ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين احمد) ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة , نشر Krenkow ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ؛ السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ، الإعـلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٢٢ ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٣٤٩ ه) .

ومما يلفت النظر فى هذا الصدد أن بعض المحدثين حددوا تاريخ هـذه الوفاة - دون ذكر لما استأنسوا به من مصادر - سنة ١٣٧٣ م المقابلة لسنة ٧٧٤ ه - ٧٧٥ ه (راجع : سعيد عبد الفتاح عاشور ، قبرس والحـروب الصليبية ، ص ٨٧ ، القاهرة ١٩٥٧) أو سنة ٧٦٧ ه (انظر : سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ص ٣٥٤ ، نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر (بدون تاريخ) ؛ والملاحظ أنها وضعت سنة ١١٦٥م مقابل السنة الهجرية ٧٦٧ ، بينما يقابلها فى الواقع سنة ١٣٦٥ م) . وهذا وهم من « سعاد ماهر » إذ أن « النويرى السكندرى » كان لا يزال على قيد الحياة فى سنة ٧٦٧ ه ، ففيها شهد حملة « بطرس لوزنيان » على الاسكندرية ، وفيها شرع فى تأليف كتابه ، كما مر بنا من قبل . وأما « سعيد عاشور » ، فيحتمل أنه استنتج تاريخ وفاة « النويرى السكندرى » من النص الذى أوردناه الآن قبل هذا التعليق تأسيساً على أنه انتهى من كتابه فى سنة ٧٧٥ه .

ومن المرجح - حسبما أوردنا من شواهـد تؤيدها نصوص « النويرى السكندرى » نفسه - أنه توفى فى أواخر عام ٧٧٧ ه أو أوائل عام ٧٧٨ ه على

أقصى تقدير . وتستند فى ذلك إلى أنه لو كان حيا بعد أحــــداث شهر رجب سنــة ٧٧٧ هـ (راجـــع ما أشرنا إليــــه الآن عـن نسخـة دار الكتب ، لوحة ٢٨٤ أ) أو بعد استهلال سنة ٧٧٨ هـ ، لكان دون أحداث هذه الفترة قياسا على مافعل بعد أحداث سنة ٧٧٥ هـ ، وهى السنة التى ذكر من قبل أنه انتهى فيها من كتابه ، والذى أثبتنا ـ من واقع ما أورده هو نفسه من أحداث ـ أنه واصل التدوين بعدها ـ المترجمان ﴾ .

٢٤- ﴿ تتكون هذه النسخة ـ فى الواقع ـ من ٢٧١ ورقة ، أو لوحة ، بما فى ذلك صفحة العنوان ـ المترجمان ﴾ .

٢٥- من المهم أن نذكر أن الروايات التى ذكرها شهود العيان من المسلمين عن الوقعة قد ساندها مصدر أساسى مسيحى ، هو كتاب La prise d'Alexandrie (نشر de Mas Latrie, Genève, 1877) ، وهو عبارة عن ديوان شعر كتبه Guillaume de Machaut ، ويضم حوالى ٩٠٠٠ بيت من الشعر . وقد بدأ Machaut كتابته فى عام ١٣٦٩ ـ وهـــو فى سن الخامسة والثمانين ـ وأنهاه فى عام ١٣٧٢ أو ١٣٧٣ . ولم يكن Machaut يعرف شيئاً عن الشرق ، كما كانت تنقصه التفاصيل الحقيقية عن الأحداث ، إلا أنه قدم ـ خلال شعره ـ دراسات هامة فى الموضوع ، إذ كان على اتصال بالمعاصرين ممن شهدوا الوقعة . ويتفق كل من كتاب « الإلمام » وكتاب La prise d'Alexandrie ـ كمعاصرين للأحداث ـ إلى درجة كبيرة فيما أورده عن الأمور التى جرت فى تلك الفترة ؛ ولهذا يمكن لنا الاعتماد عليهما اعتماداً كبيراً .

٢٦- ﴿ راجع أحدث ما كتب فى الموضوع ويضيف ـ فى نفس الوقت ـ كشفاً جديداً عن أبواب هـــذا السور التى لم تكن تقل فى هذه الفترة عن تسعة أبواب ، فى : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، ص ٤٤٤ - ٤٥٣ ، الطبعة الثانية ، الاسكندرية ١٩٦٩ - المترجمـــان ﴾ .

٢٧- ينص ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٢٨ ، على وجود أربعة من هذه الأبواب .

٢٨- Richard Pococke, Beschreibung des Morgenlades und einiger anderer Lander..., Erlangen 1754, Bd. I. 6 ff.

٢٩- Gratien Le Père, Mémoire sur la ville d'Alexandrie, in Description de l'Egypte, Etat Moderne, t. XVIII, 1 (Paris 1826) , S. 415 - 418 .

٣٠- توجد معظم هذه الخرائط فى :

Atlas Historique de la Ville et des Ports d'Alexandrie, par Gaston Jondet (Mémoires présentés à la Société Sultanieh de Geographie, t. II) , Le Caire 1921 .

٣١- الخطط الجديدة ... ، بولاق ١٣٠٥ هـ ، ج ٧ ، ص ٣٥ .

٣٢- ﴿ راجع تحقيق هذه التسمية ونقدها فى : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٤٤٨ - ٤٥٠ : المترجمان ﴾ .

٣٣- Atlas Historique, pl. XLVII .

٣٤- ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (٩٤ أ) ... أن السلطان صالح بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور (جاء فى الأصل : محمد بن الملك الناصر ، وهو خطأ) قلاون سلطان الديار المصرية والشامية وغيرهما - منع دواوين النصارى الذميين فى سنة خمس وخمسين وسبعمائة من الديونة ، وأن احداً منهم لا يكتب بديوان إلا إن أسلم ، ومن بقى على نصرانيته يلبس خشن الثياب ، وأن تقصر أكمامهم وأذيالهم وتصغر عمائمهم ، ويركبوا الحمر على شق واحد ، وكذلك سائر النصارى الذميين ، فامتثل ذلك ... (٩٤ ب) ... فصارت الفرنج بالاسكندرية ... يرفعون بضائعهم وأثاثهم إلى المراكب بسرعة وسافروا ، أخبروا النصارى الرومانية بما فعلته المسلمون بأهل النصرانية . فكان ذلك - والله أعلم - سبباً لهيجان القبرصى وطوافه بأرض الرومانية ... الخ » - المترجمان ﴾ .

٣٥- راجـــع :

de Mas Latrie, Histoire de l'île de Chypre, II, 224, note 2.

٣٦- ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (٩٤ ب) . . كما قيـــل ـ والله أعلم ـ أن بطرس ، صاحب قبرس لعنه الله ، لما ولى الملك بعد هلاك أبيه ريوك ، أرسل إلى السلطان الملك الناصر حسن يسأله أن يرسم له بالتوجـــه إلى بلد صور ـ بساحل الشام ـ ليجلس على عمود بها كعادة كل من تملك قـــبرس ، (٩٥ أ) لأنه لا يتم له ملكها ـ بزعمهم ـ إلا بالجـــلوس على ذلك العمود أو مكان مختص بجلوس الملك فيه ، فيتم له بذلك الملك ويصح له نفاذ حكمه فى رعيته . فاحتقره السلطان ، ومنعه الدخول الى بلد صـــور ، فكان ذلك ـ والله أعلم ـ سبباً لغزوه الاسكندرية » ـ المترجمان ﴾ .

٣٧- ﴿ الغراب ـ والجمع أغربة وغـــربان ـ نوع من المراكب الحربية التى تستعمل فى الغارة والغزو عن طريق البحر ، يصفها النويرى ـ صاحب « الإلمام » ـ نفسه ، فيقول : « والمراكب الغزوانية تسمى غـرباناً ، وذلك لرقتها وطولها وسوادها بالأطلية المانعة للماء عنها كالزفت وغـــيره ، فصارت تشبه سوادها الغربان لسوادها وسواء مناقيرهـا » . ويضيف النـــويرى : « ويقال للغربان أيضاً شوانى ، واحدها شونى ؛ ويقال لها أجفان ، واحدهـا جفن ... » ويعود ليؤكد تعريفهـا بمعنى شونى فيقول : « ... ذكر أن جماعة من كراسلة (أى قراصنة) الفرنج الأعزاب ، لم يملكوا من الشوانى غـــير غـراب ... الخ » ؛ انظر على التوالى : (١٢٣ أ) و (١٢٤ أ) من نسخـة برلين ، (١٥٢ أ) من نسخة الهند ـ المترجمان ﴾ .

٣٨- ﴿ جاء فى « الإلمام » : (١٥٥ أ) ... أنه أتى إلى مينة الاسكندرية فى شوال سنة خمس وخمسين [وسبعمائة] غـراب فيـه كراسلة ـ أى لصوص من الافرنج ـ تشوش مينتها ، وتخطف ما تقـدر على خطفه . فصـار الغراب المذكور يدور من مينة الاسكندرية الغربية إلى مينتها الشرقية ، فرأى مركباً

أتت من جهة الميناء الغربية قدمت إلى الاسكندرية من بر التركية ، فيها تجار المسلمين ومتاجرهم ، فهاجمها الغراب المذكور وحاربها ، فحاربته وقاتلته ، فلم يقدر عليها لعلو سمكها وخروج رماة المسلمين فى القوارب من الساحل لحمايتها منه ، ورموا عليه سهامهم بقسى الجرخ التى معهم ، فسلمت منه ، ودخلت بحر السلسلة أرست بشاطئه بالقرب من الباب الأخضر . فصار الغراب المذكور يجول يميناً وشمالا ، فأرسل إليه الأمير سيف الدين بلاط ـ نائب السلطنة بالاسكندرية ، بإشارة تاج الدين موسى الخازن ناظرها ـ قناصلة الفرنج المقيمين بها يستخبرونه عن أمره وما سبب جولانه بالميناءين ، فرجعوا فى القارب الذى ركبوه إليهم أخبروهما عنهم أنهم يريدون ما يأكلون ويشربون ويرتحلون ، فأرسلا لهم مأكولا وقرب الماء . . . ثم إنهم نظروا مركباً قدمت من الشام ، فوثبوا عليها أخذوها بما فيها من البضائع ، ورموا رجالها بميناء بوقير ، ومضوا بها . . . ولما بلغ الملك الناصر حسن خبر الغراب المذكور . . (٩٥ ب) . . . أرسل الأمير سيف الدين بكتمر ـ الشهير بالوشاقى ـ إلى الاسكندرية كاشفا . فحضر ونزل بدار العدل المجاورة لبيت المال ـ وهى التى كان بناها أيام ولايته بها ـ فكشف عن الخبر . . . ثم إن صاحب قبرس أتاه خبر الغراب المذكور وما فعله بميناءى الاسكندرية ـ مع ما أطمع وسقى ـ ولم يخرج له أحد حاربه ولا قاتله ، طمع فيها . . . الخ ، ـ المترجمان ﴾ .

٣٩- ﴿ جاء فى « الإلمام » ، « (٩٥ ب) . . . السبب الرابع ، أن غراباً هجم على الجزيرة المقابلة لرشيد ، أخذ منها من المسلمين خمسة وعشرين نفراً مابين رجال ونساء . . . (٩٦ أ) . . . ثم إن القبرسى لما بلغه خبر الغراب وما فعل بجزيرة رشيد من أخذه الأسارى منها ، فطمع فى الاسكندرية وعمل عليها حتى ظفر بها . . . السبب الخامس ، أن ثلاثة أغربة أتوا إلى ميناء بوقير وقت الفجر سابع عشرين شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة ، أخذوا من قصور البساتين ستة وستين نفراً من المسلمين مابين

رجال (٩٦ ب) ونساء وصبيان وإناث ، ومضوا بهم إلى ساحـــل صيدا بالشام ، افتـدتهم منهم المسلمون ، ورجعوا الجميع إلى أوطـانهم ببوقير . . . فلما بلغ القبرسى فعلهم ذلك ببوقير ، ولم يجرد أحد من الأهـالى فى وجوههم سيفاً واحداً ، طمع فى الاسكندرية . السبب السـادس ، أنه أتى إلى جهـــة بوقير ستة غربان جروا فى البحر ليلا جرياً مقصوداً لعدم جاسوسهم الذى يكون فى البر يقد لهم ناراً فى الليـــل يقصدون جهتها ، فسمعت الصيادون الذين يصيدون السمك فى الليل داخل البحر فى قواربهم حس جـــدف تلك الغربان ، فأخذوا حذرهم منهم ، فمضت الغربان بجريهم المقصود الى بلد رشيد . وكان جريهم أولا بقـلاعهم وجـدفهم لبوقـــير ، فلما انفسد بهم الجرى إلى رشيد ، نزل جماعـة من الفرنج من ثلاثة أغـــربة ، ففطنت بهم المسلمون ، فأتوهم بكثرة عددهم وعـددهم ، فهربت الفرنج منهم طالبين غراباً من الثلاثة ، فسبقهم أحمد الجداوى ـ المعروف بالباشق ـ إلى سقالة الغراب رماها (فى) البحر ، فترامت الفرنج (فى) البحر ليهربوا إلى الغراب عنـد تبريز الغراب بمن بقى فيه داخل البحر خوفاً من سهام المسلمين الذين أتوهم يهرعون ، غرقوا كلهم لثقل الحـديد الذى عليهم ، منعهم العوم إلى الغـراب المذكور ، فقذفهم البحر بعد أيام الى الساحل ، فكان عدتهم ثمانين رجلا . . . » ـ المترجان ﴾ .

٤٠ـ ﴿ أورد النويرى ـ فى غير هـذا الموضع ـ تفاصيل مقتلة البنادقة ، انظر : نسخة الهند من « الإلمـام » (١٣٧ ب ـ ١٣٨ أ) ـ المترجمان ﴾ .

٤١ـ ﴿ جاء فى « الإلمـام » : « (٩٦ ب) . . . السبب السابع ، مافعلته عوام المسلمين بالاسكندرية بقتلهم (من) بها (من) الفـرنج البنادقة . فلما هم القبرسى بالغارة على الاسكندرية ، أعانته البنادقـة بسبب قتـــل المسلمين لأصحابهم بالاسكندرية » . ـ المترجمان ﴾ .

٤٢ـ استغرقت هـــذه الاستعدادات من الفرنج حـوالى أربع سنوات ﴿ راجع ما جاء هنا بالحاشية رقم (٥٢) ـ المترجمان ﴾ .

٤٣ـ كان الجيش المملوكي يعسكر في ذلك الوقت بالقاهرة . وكان حاكم الاسكندرية حينئذ يطلق عليه أمير طبلخاناه ، أي أمير أربعين ممن يكونون حرسا خاصا به ، ومن المرجح أنه كان قد اصطحبهم في رحلته إلى الحج . ومن المرجح أيضاً أنه لم يكن يوجد بالاسكندرية حين الوقعة جندي واحد من المماليك . وعندما وصلت أخبار الوقعة إلى القاهرة ، أنفذ الأتابك يلبغا ـ بالاتفاق مع السلطان ـ جيشا بريا مكونا من ألف جندي من المماليك إلى الاسكندرية التي وجدوها قد خلت من الفرنج عند وصولهم ﴿ راجع ما جاء هنا بالحاشية رقم (١٣٠) ـ المترجمان ﴾ وبعد الوقعة ، عين أمير مقدم ألف حاكما للاسكندرية ؛ والأمير مقدم ألف قد يعني أيضا أمير مقدم مائة ، ويصبح مقدم ألف في الحالات الضرورية .

ولما كان كتاب السلوك للمقريزي لم يتم إخراجه بعد في طبعة كاملة ﴿ صدر منه حتى الآن جزءان في ستة أقسام ، حققهما الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وبقية الكتاب لايزال مخطوطا ـ المترجمان ﴾ ، فتجدر الإشارة هنا إلى ماساقه ابن إياس في حوادث سنة ٧٦٧ هـ ـ حسبما جاء في نسخة فاتح ، رقم ٤٢٠٠ ، ورقة ٥٨ أ وما بعدها ؛ وفي طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ٢١٤ وما بعدها ـ إذ يرد هنا إشارة مقتضبة عن الوقعة .

﴿ انظر شرحا وافيا عن المصطلحين : أمير طبلخاناه ، ومقدم ألف ، في : حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج ١ ، ص ٢٣١ - ٢٣٦ ؛ ج ٣ ، ص ١١٢٧ - ١١٢٨ (على التوالي) ، القاهرة ١٩٦٥ و ١٩٦٦ ـ المترجمان ﴾ .

٤٤ـ تطلق هذه التسمية على كل المنطقة الموجودة شمالي سور الاسكندرية ، والتي تضم جزيرة فاروس واللسان الذي تم توصيله بالمدينة ، وهي المنطقة التي كانت تكون اللسان القديم Heptastadion .

﴿ راجع مزيدا من الشروح عن هذه المنطقة في : السيد عبد العزيز سالم ،

المرجع السابق ، ص ٢٠ - المترجم ﴾ .

٤٥- ﴿ الجرخ - والجمع جروخ -: نوع من القـــوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب والنفط ؛ أنظر :

Dozy, Supplément aux Dictionaires Arabes, t. I, p. 182, 2ème Edition, Lèide - Paris 1907 ؛ وهـــو أحد الأنواع الذى يقابله بالانجليزية لفظ Crossbow وبالفرنسية Arbalète . انظر أيضاً : الحسن بن عبد الله ، آثار الأول فى ترتيب الدول ، ص ١٦٠ ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٥ هـ ، فهو يذكر الأقوام الذين يمانون قسى الجرخ ، كما يشير إلى دواعى استعمالها . راجع كذلك شروح الدكتور جمال الدين الشيال على هذا النوع من الأقواس فى : جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، مفـــرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ، هـ ٣ وص ٢٤٤ ، هـ ٤ ، القاهـــرة ١٩٥٧ م . ولمعرفة أسلوب توتير هذا النوع من الأقواس ، أو المعروفـــة بصفة عامة باسم Crossbows ، انظر :

Charles H. Ashdown, Armour and Weapons in the Middle Ages, pp. 85-7 , Figs. 71, 73 , London 1925 - المترجمـــان ﴾ .

٤٦- ﴿ المزراق - والجمع مزاريق - هو الرمح القصير ، راجع القاموس . وهـــو « أخف من العـــنزة » كما ورد فى : نعمان ثابت ، الجندية فى الدولة العباسية ، ص ١٨٤ ، بغداد ١٩٣٩ ؛ قارن ماجاء هنا بالحاشية رقم (١٠٧) . وقد وصفه على بن عبد الرحمن بن هـــذيل الأندلسى ، حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق محمد عبد الغنى حسن ، ص ٢٠٢ ، طبعـــة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥١ ، وصفه فقـال : « والمزراق كذلك لأنه يرمى به للطاعنـــة عصاه ، وقد يكون سنانه مربعاً لطيفاً لخرق الدروع وشبه ذلك » . انظـــر أيضاً : Dozy, Supp. aux Dict. Arabes, I, p. 588 - المترجمان ﴾

٤٧- ﴿ الدرقة - والجمع درق - : الترس الدائر ، وتصنع من الجلود خاصة ؛ أنظر : ابن هذيل ، حلية الفرسان ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ و ه ١ ، ص ٢٣٢ - المترجمان ﴾ .

٤٨- ﴿ الصفيحة - والجمع صفائح - من الأسماء التي يوصف بها السيف إذا كان عريضا ؛ انظر : ابن هذيل ، ص ١٩١ - المترجمان ﴾ .

٤٩- ﴿ الزرد ، الدرع المزرودة : أي المكونة من حلقات من المعدن يتداخل بعضها في بعض في اتساق وتراصف ، فهي : زرد نضيد ؛ انظر : Dozy, Supp. Dict. Arabes, I, pp. 584-85 - المترجمان ﴾ .

٥٠- ﴿ النفط ، جاء في : Dozy, Supp. Dict. Arabes, II, pp. 703-4 ، أن « النفط نوع من المواد الدهنية سريعة الاحتراق ، وقد يطلق اللفظ أيضاً على نفس الآلة التي يزرق منها النفط » - المترجمان ﴾ .

٥١- ﴿ لتحديد موقع تربة طغيتمر ، راجع : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣ - المترجمان ﴾ .

٥٢- ﴿ جاء في « الالمام » : « (٩٧ أ) . . . ثم إن القبرسي لما قصد غزو الاسكندرية ، استنجد بملوك النصارى بإشارة الباب (البابا) لهم في ذلك . . . فلما أعانت ملوك النصارى صاحب قبرس بالمال والرجال والغربان - بإشارة الباب لهم في ذلك - تعمرت المراكب ، على ماقيل ، برودس ، لأنها دار صناعة الفرنج ، فكانت عمارتها - على ماقيل - في أربع سنين ، وذلك في مدة طوافه على الملوك . . . وكانت الأخبار تأتي إلى الاسكندرية بأن العمارة عند القبرسي ، فاستهم نائب السلطان بها - وهو الأمير زين الدين خالد - فرفع سورها القصير من جهة الباب الأخضر ، وصار يجتهد في العمارة ، ويرسل يطلب من الأمير يلبغا الخاسكي - مقدم الجيوش المنصورة - الإعانة على عمارة السور ، ويعلمه بخبر عمارة القبرسي

للمراكب الحربية . . . (٩٨ أ) . . . وكان الخبر يأتي الى القبرسي بجزيرة قبرس أن الاسكندرية بها طوائف قاعات يبيتون بساحل مينتها ، لم يعرفوا الحرب ولا باشروه أبداً ، بل يخرجون منها إلى البحر يحرسون ، وكلهم بملبوسهم متزيفون . . . فلما علم القبرسي حالهم طمع فيهم (١٠١ أ) . . . [وأما] نائب السلطان بثغر الاسكندرية ـ وهو الأمير خليل صلاح الدين ابن عرام ـ [ف]كان غائباً عن الثغر المذكور بالحجاز الشريف بسبب الحج . وكان نائباً عنه في مدة غيبته ـ بإشارة الأتابك يلبغا الخاسكي ـ أمير يسمى جنغرا . فلما دخل جنغرا المذكور الاسكندرية ، رأى طوائفها المتطوعة الحارسة لمينتها تنجر عليه بالجزيرة بقسيهم الجرخ الموترة ، وأعلامهم الحرير المنشورة ، مع ما بأيديهم من المزاريق ، والرماح ، والصفاح ، والزرد النضيد ، ومصفحات الحديد ، والنفط الطيار الصاعد منهلهب النار ، وهم بملبوسهم المختلف الألوان ، كالزهر في البستان . . . فأقام جنغرا بالاسكندرية من شوال سنة سبع وستين وسبعمائة إلى شهر المحرم ينظر لتلك الطوائف التي لكل طائفة منها ليلة في الأسبوع تبيت تحرس ساحل المينة . وربما بات (جنغرا) ليالي في الغرفة التي على باب مسجد تربة الأميرطغية ، ويقدم قدامه فانوسين أكرتين مقابل باب المسجد المذكور ، وتأتي طائفة الزراقين يطلقون النفط ؛ وهو ينظر من طيقان الغرفة المذكورة إلى الشرار الطيار ، واللوالب التي تدور بألوان النار ؛ من الخضرة والصفرة ، والبياض والحمرة ؛ فيحصل له بذلك الانشراح ، من العشي إلى الصباح ؛ ويبتهج أيضاً بنظره إلى كثرة الخلائق المنتشرة على الساحل من الرماة والعوام وقد نصبت لهم سوق فيه من أصناف المأكول يشترون منه ويأكلون ، ومن الروايا والقرب التي تحمل من البلد إليهم يشربون . فإذا أصبحوا ، انتظمت الطائفة التي باتت تحرس ، ودخل(ت) البلد ، في همة وجلد ، وكثرة مدد ؛ فتجتمع لدخولهم الرجال والنسوان ، ينظرون لأقوام كزهر بستان ؛ من حسن الملابس ، وبياض تلك الأطالس ؛ فتزغر(د)ن لهم النسوان . . . الخ ، ـ المترجمان ﴾ .

٥٣- سد الباب الأخضر بعد هذه الغارة بالجير والأحجار ، ثم أعيد فتحه في ولاية الأمير سيف الدين إلاكز للاسكندرية ، فركبت عليه أبوابه الثلاثة .

{ جاء في « الإلمام » : « (١٠١ ب) : . . . فبينما هم كذلك . . . إذ دهمهم صاحب قبرص اللعين . . . وذلك في يوم الجمعة الثاني والعشرين من المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة ، والنيل منتشر على البلاد ؛ قصد - الملعون - بإتيانه في ذلك الزمن لتعوق النجدة من مصر لبعد الطريق من الجبل ، فنال الخبيث قصده في ذلك اليوم والذى بعده ، وتحصن - قبل إتيان النجدة - بمراكبه . . . (١٠٢ أ) . . . وذلك أنه لما كان يوم الأربعاء العشرين من المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة ، ظهر في البحر مراكب مغربة ومشرقة ، زعم أهل الاسكندرية أنهم تجار البنادقة ينتظرونهم يأتون بمتاجرهم على جارى عادتهم في كل سنة . وكانت تجار المسلمين جابوا لهم من اليمن أصناف البهار يبيعونها عليهم ويتعوضون عنها من متاجرهم . فلما لم يدخلوا الميناء ، باتت الناس في خوف شديد بسببهم . فلما أصبح يوم الخميس ، أقبلت المراكب الكثيرة طالبة ساحل الجزيرة . . . إلى أن حطت قلاعها ببحر السلسلة وذلك من جهة الباب الأخضر ، المسدود بعد الوقعة بالجير والحجر ، ثم فتح بعد ذلك وركبت عليه أبوابه الأول والثانى والثالث المتجددة ، وذلك في يوم الوقعة سنة سبع وستين وسبعمائة في ولاية الأمير إلاكز بالاسكندرية . . . الخ » - المترجمان } .

٥٤- { القميرة : أداة لجس الأعماق في البحر - المترجمان } .

٥٥- { جاء في « الإلمام » : « (١٠٢ أ) . . . ولما أرست المراكب الحربية ببحر السلسلة مبرزة عن الساحل ، اعتدت أهل الاسكندرية للقتال ، والحرب والنزال ؛ فتعمرت القلاع التى من جهة البحر بالجزيره ، بالرماة الكثيره ؛ وانتشرت الناس على السور ، وصار برماة الجرخ معمور ؛ فخرج من مراكب الفرنج قارب يجس الميناء بقميرة ، فرمت المسلمون عليه بالسهام ،

فولى هاربا حتى إصتق بالمراكب فلما كان بعد الغروب ، وقدت الفوانيس على السور ، فضاء السور بالنور . . . الخ » ـ المترجان ﴾ .

٥٦- ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٢ ب) . . . فلما كان بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة ، انتشر على الساحل بالجزيرة خلق من المسلمين كثيرة . . . وكانت الباعة خرجوا من البلد بطبالهم وقدورهم ودسوتهم ملآنة بالطعام ، يبيعونها على من بالجزيرة من الخاص والعام ، وذلك من ليلة الخميس ، ليكسبوا معاشهم . . . فلما كان قبل (طلوع) الشمس من يوم (١٠٣ أ) الجمعة أقبلت العربان ... فصاروا يتطاردون على خيولهم ... وتلك العربان من كثرتهم خارجين من الباب الاخضر فصاروا فى الجزيرة . » ـ المترجمان ﴾ .

٥٧- ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٣ أ) . . . فقال أحد تجار المغاربة وغيره للأمير جنفرا : هذا عدد ثقيل ... والمصلحة دخولهم (أى الناس) المدينة ، يتحصنون بأسوارها الحصينة ، ويقاتلون من خلف الأسوار . . إلى أن تصل من مصر نجدة . . . » ـ المترجان ﴾ .

٥٨- احتل Filippo Doria الجنوى مدينة طرابلس فى عام ١٣٥٤ ؛ راجع : E. J. IV. 883.

٥٩- (جاء فى « الإلمام » : « (١٠٣ أ) . . . فقال له (أى جنفرا) من له رباط بالجزيره ـ قد انصرفت على بنائه ألوف كثيره ؛ بنيت بين مقابر الأموات ، لمبيت طوائف القاعات ـ : « ما نترك هؤلاء الفرنج الذين كل منهم رجل مقامر ، يطأون بأرجلهم تراب المقابر » قالوا ذلك خوفا على أربطتهم تخربها الفرنج إذا نزلوا الجزيرة ، بجموعهم الكثيرة . فقال عبد الله ـ التاجر المغربى ـ لجنفرا : « دخول المسلمين البلد أصلح لهم » . فقالت أرباب الربط : « أنتم يامغاربة أخربتم بالدكم طرابلس بأخذ الفرنج (لها) ، وتريدون أن

تحربوا ربط المسلمين بدخـــول المسلمين البلد ؟ لا كيد (لكم) ولا كرامة ، بل نمنعهم النزول من المراكب ، ونذيقهم بالسهام العذاب الواصب » . . .
(١٠٣ ب) . . . فكان جواب جنفرا لعبد الله ـ التاجـــر المذكور ـ :
« لست أترك أحداً من الفرنج يصل إلى الساحل ، ولو قطعت منى الأوداج ونفدت المقاتل . . . الخ » ـ المترجان ﴾ .

٦٠- يقدر Guillaume de Machaut عدد هؤلاء المغاربة بما يقـــارب العشرين ألفا . راجع : .Vs. 2220 ff

﴿ من المؤكد أن المقصود هو المغـاربة الذين كانوا ينزلون الاسكندرية ـ المترجـــان ﴾ .

٦١- ﴿ الزراقون ـ والمفـــرد زراق ـ : هم الذين يرمون النفـط من الزراقة ، وهى أنبوبة خاصة يزرق بها النفط ؛ راجع :
Dozy, Supp. Dict. Arabes, I, pp. 587-88 ـ المترجان ﴾ .

٦٢- ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٣ ب) . . . ثم إن الفـرنج صاروا بمراكبهم ينظرون أحوال الناس ، فلم يروا إلا من هـــو عار من اللباس ، فطمعوا فيهم ، وزحفوا بغراب التقدمة إليهم ، فنزلت إليه طائفة من المغاربة خائضين فى الماء ، ناوشوا من فيه القتال والحرب والنزال ، ومسكوا الغـراب بأيديهم ، وطلبوا من الزراقـين النـار ليحرقـوه ، فلم يأت أحـــد بشرارة (نفط) ، وذلك لقـــلة همتهم وتهاونهم وغفلتهم » ، فاستعجلوهم بالنـار ، فرموا بدفع فيه نار كنار الحلفا ، فوقع فى المـــاء فانطفا . ثم إن المغـاربة وأصحاب الغراب ضربوا بعضهم بعضا بالسيوف إلى أن قتلت المغاربة فى تلك المحاربة . فحينئذ دخل الغراب الساحل ، وتبعه آخر كان يرمى بالسهام ، فلمـا دخلا البر ، تتابعت الغربان داخلة من أماكن متفرقة ، فنزلت الفرنج سريعاً من مراكبها بخيلها ورجلها وقت الضحى نهار يوم الجمعـــة إلى البر ، فرمعه

الخيالة (على) المسلمين بالسهام ، تقدمهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام . . . الخ » ـ المترجان ﴾ .

٦٣ـ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٣ ب) . . . وكانت الفرنج مسربلة بالزرد النضيد ، متجلببة بصفائح الحديد ؛ على رؤسهم الخوذ اللامعه ، وبأيديهم السيوف القاطعه ؛ قد تنكبوا القسى الموتوره ، ورفعوا أعلام الصلبان المنشوره ؛ وصاروا يرمون على المسلمين فارتشقت سهامهم فى أهل الإيمان ، وفى خيول العربان ، فهجمت بهم تلك الخيول فى كل جهة ومكان ؛ فانهزموا إلى ناحية السور ، فصار جيش المسلمين بهزيمة العربان مكسور ؛ ولا عادوا قابلوا الفرنج (١٠٤ أ) الكلاب ، بل دخلوا غائرين من الأبواب ؛ وكانت الفرنج لابسين الحديد من الفرق إلى القدم ، والمسلمون كلحم على وضم ؛ فكيف يقاتل اللحم الحديد ، وكيف يبرز العارى لمن كسى الزرد النضيد . . . ثم إن أهل الاسكندرية لما رأوا ما لم يعهدوه . . . رجفت منهم القلوب . . . فتزاحموا فى الأبواب بعضهم على بعض . . . الخ » ـ المترجان ﴾.

٦٤ـ وقف قاعة القرافة هذه الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن سلام . وهى تقع ـ فيما يبدو ـ قريباً من الجامع الغربى الذى قام ابن سلام بتوفير الحصر له . وهذه القاعة لا تبعد كثيراً عن باب الخوخة الذى يعرف أيضاً بباب القرافة ﴿ راجع الحاشية رقم (٣٢) ـ المترجان ﴾ . وقد استخدمت هذه القاعة كمكان لاجتماع المتطوعة من الرماة ، كما كان يحفظ بها أسلحتهم وعددهم وأعلامهم وبنودهم وسائر معداتهم الحربية . وكانت العلاقة بين هؤلاء المتطوعة تتسم بسمة الأخوة ذات الصبغة شبه الدينية . وكان رماة المتطوعة يتجمعون فى هذه القاعة حيث يرتدون ملابسهم ، ويسلحون أنفسهم بالأسلحة اللازمة ، ويخرجون منها ليلا فى جماعات معينة ويتوجهون إلى الجزيرة للقيام بنوبات الحراسة . وقبل وقوع الغارة بمدة سنة ، قام ابن سلام ببناء رباط لجماعة الرماة المتطوعة هذه حيث كانوا ينامون فيه ويقيمون صلواتهم وحلقات الذكر . وذكر أنه صرف على هذا الرباط ثمانمائة

دينار ، وأنه أعاد بناءه كما كان عليه الحال من قبل فى عام ١٣٦٩/٧٧١ بعـد أن خربته عساكر الفرنج ، فيما عدا سقف الايوان ، فقد أنى هذا السقف بالحجارة بدلا من الخشب حتى لا يصير للنار فيه عمل إن حدث أمر مثل ذلك .

٦٥- ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٤ أ) . . . وذلك أن جماعة من رماة قاعة القرافة (١٠٤ب) المتطوعة لما حوصروا فى الرباط - الذى عمره لهم الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن سلام خارج باب البحر بالجزيرة بسبب مبيتهم فيه وصلواتهم وذكرهم ليلة خروج طائفتهم ترابط به ، وكان بناؤه قبل الوقعة بما يزيد على سنة ؛ قيل إنه انصرف على عمارته ثمانمائة دينار - فلما تكاثرت الفرنج حول الرباط ، صارت رماة المسلمين فى أعلاه يرمون على الفرنج بسهامهم ، فقتلوا من الفرنج جماعة . فلما نفدت سهامهم ، عمدوا إلى شرفات الرباط صاروا يهدمونها ويرمون الفرنج بأحجارها إلى أن نفدت حجارة الشراريف منهم ، فانقطع رميهم . فكسرت الفرنج شبابيك الرباط المذكور ، وصعدوا إليهم . فلما صارت الفرنج معهم ، صاحوا بأجمعهم : « يامحمد » ، وصمتوا ، فلم يسمع لهم بعد ذلك صوت . أخبر عنهم بذلك عبد الله بن الفقيه أبى بكر - قيم مسجد القشميرى - كان مختفيا بصهريج الرباط المذكور فذبحهم الفرنج عن آخرهم . . . قال المؤلف . . . : حدثنى الشيخ الصالح أحمد بن النشائى - شيخ رماة قاعة القرافة بالاسكندرية قال : « حدثنى محمد الخياط - بعد قدومه من مدينة قبرس مع من حضر من أسارى الاسكندرية الراجعين إليها منها - قال : كنت مع رماة المسلمين على سطح رباط ابن سلام حين صعدت الفرنج إلينا ، فصاروا يذبحون الرماة وأنا أضطرب من الخوف ، فتركونى حيا لصغر سنى . وأما حسين البياع ، فإنه لما قصدوا ذبحه (١٠٥ أ) ضحك لهم ، فضحكت الفرنج لضحكه وقالوا: اتركوه ، لأنه ضحك موضع الخوف . قال : فأسرنا الاثنين . . . الخ » - المترجمان ﴾ .

٦٦- أشار خليل الظاهرى إلى دار السلطان هـذه ، فذكر أن صلاح الدين بناها ، ثم جددها الناصر فرج بن برقوق (١٣٩٨ - ١٤٠٥) فأزال ما أصابها من تلف من جراء الوقعة . وكانت دار السلطان تعد فى زمن خليل الظاهرى إحـدى التحف الفنية العالمية ، وهو يحدد موقعها فيذكر أنها كانت تطل على البحر مباشرة . ومن المرجح أنها كانت تقع على السور الغربى الذى كان يصل - وقتئذ - إلى الميناء الغربى . وغالباً ما كانت الدار لاتفتح فتظل مغلقة . وقد صرح السلطـان الأشرف سيف الدين برسبـاى لصهره خليـل الظاهرى بسكنى هـذه الدار عندما أصبح الأخير حاكما للاسكندرية فى عام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ - ١٤٣٧ م .

﴿ ولمعرفـة المزيد من التفصيلات عن هـذه الدار ، راجع : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٤٨٥ - المترجمان ﴾ .

٦٧- ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٥ ب) ... وذلك أن الأمير جنغرا ... لما رأى الناس فروا من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وشماله بلذع سهام الفرنج ، والتذع هو أيضاً بها ، وسال دمه من نصلها ، ندم على مخالفته لقول القائل له : « ادخل بالنـاس (المدينة) ليتحصنوا بأسوارهـا الحصينة » ... ثم إن جنغرا قصد ناحية المطـرق المحاذى لدار السلطـان - غربى الاسكندرية من ظاهر سورها - خائضا بفرسه فى الماء ومن تبعه من المسلمين ، فدخـل الاسكندرية من باب الخوخة ، فأتى بيت المـال ، أخذ ما كان فيه من الذهب والفضة ، أخرجهما من باب البر ... الخ » - المترجمان ﴾ .

٦٨- ﴿ جاء فى « الإلمـام » : « (١٠٥ ب) ... وأمر — أى الأمير جنغرا - بتجار الفرنج وقناصلتهم ، وكانوا نحو خمسين بالاسكندرية مقيمين ، أخرجهم من باب البر ، ووجههم إلى ناحيـة دمنهور بعـد أن امتنعوا عن الخـروج مع الجبلية المرسمين عليهم . فعنـد ذلك ضرب أحـمد الجبلية عنق افرنجى منهم بسيفه . فحين رأوا ذلك ، خافوا أن تضرب أعناقهم ، فأذعنوا بالخروج سرعـة ، فخـرجت الجبلية بهم مسلسلين إلى جهـة دمنهور . وكان

خروجهم بهم حين انضمام العدو إلى القريب من السور ، فرمتهم المسلمون من أعلى السور بالسهام ، فلم يقدروا على الوصول إليه . . . . ـ المترجمان ﴾ .

٦٨ أ ـ ﴿ ما بين الحاصرتين لم يرد فى الترجمة عن نسخة براين ، فالعبارة ساقطة فى تلك النسخة ، وما هنا إضافة عن نسخة الهند رأينا إثباتها زيادة فى توضيح وصف هذه السلالم ـ المترجمان ﴾ .

٦٩ ـ ﴿ التوسيط ، هو ضرب الرجل فى وسطه بالسيف فينشطر قطعتين ـ المترجمان ﴾ .

٧٠ ـ ﴿ جاء فى « الإلمام » : ما (١٠٥ ب) « . . ثم إن الفرنج عمدوا إلى بقية خشب ملأوها حريقاً وقصدوا بها حرق باب البحر وكركرتها بأسنة الرماح . فتتابعت عليهم السهام من أعلى السور ، فقتل من الفرنج جماعة ، فحاروا فى أمرهم لماذا يفعلونه ؟ فتركوا البقية تقد نارا بعيداً عن الباب ، ورجعوا إلى ناحية المينة الشرقية . ونظروا فلم يجدوا على السور من تلك الجهة أحدا ، ولا ثم خندقاً يمنع من الصعود إلى السور ، فدرجوا إلى جهة باب الديوان أحرقوه ، ودخلوا (منه) مع ما نصبوا هناك من السلالم الخشب المفصلة صعدوا عليها السور . فلما رآتهم المسلمون الذين على السور من البعد قد صعدوا وبينهم وبين الفرنج ثلمة عالية غير نافذة إليهم ، شردوا طالبين النجاة منهم لكثرتهم ، ولتحققهم بأن الفرنج ملكت البلد . فقتل من المسلمين من أدركته الفرنج ، وسلم منهم من خرج من أبواب البر . فلو كان (١٠٦ أ) السور الذى يلى البحر جميعه معمرا بالرجال من جهة الديوان والصناعة ، سلمت منهم الاسكندرية . وإنما قال شمس الدين بن غراب ـ كاتب الديوان ـ وشمس الدين بن أبى عذيبة ـ الناظر ـ : « اغلقوا باب الديوان الذى يلى البلد لئلا تنقل التجار بضائعها منه إلى البلد فتضيع الحقوق عليها » ، فقفل الباب . فلذلك امتنعت الرماة من تلك الجهة من السور ، فبذلك رأى العدو جهة خالية دخل البلد منها . وقيل أيضاً إن ابن غراب ـ المذكور ـ كان متماملاً مع

صاحب قبرس عليها ، وإن صاحب قبرس أتاها قبل الوقعة فى زى تاجـــر أواه ابن غراب – المذكور – (عنده) مدة ، فصار القـــبرسى يتمشى بالبلد من جملة الفرنج – التى (كانوا) بها تجارا – وهو يكيفها ، وينظر أحــوال الناس بها . فلما علم ذلك بعد الوقعة ، وسط الأمير صلاح الدين بن عرام – بعد قدومه من الحجاز – شمس الدين بن غراب – المذكور – وعلقه قطعتين على باب رشيد . فلو فتح باب الديوان الذى يلى البلد ، قاتل المسلمون الفرنج من أعلى سوره ، ووجدوا مايقوتهم بالأكل من نقل الشام ، وكانت أصحاب البضائع تحرسها ويطمعون منها المجاهدين . فلما لم يكن الأمير جنغـــرا رأى صائب ، وقفل ابن غراب والناظر لباب الديوان ، أخذت الفرنج البلد منه ، ونفذت المقادير من كل كبير ، من أهل الثغر وصغير ؛ فمنهم من قتل ، ومنهم من أسر ، ومنهم من سلم ، ومنهم من كسر ، ومنهم من هرب بعـــد أن ألقى سلاحه . . . الخ » – المترجمان ﴾ .

٧١- ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٦ ب) . . . وكان فـــرار أهل الاسكندرية من الفرنج من باب السدرة ، وباب الزهرى ، وباب رشيد ، بعد زحام شديد ؛ فمنهم من أدركته الفـرنج بباب السدرة فقتله ، ومنهم من أسره ؛ ومنهم من نزل من السور فى الحبال والعمائم ، فعطب العاطب وسلم السالم ؛ وصعدت الفرنج على أعلى باب السدرة ، نصبت عليه أعلام الصلبان ، وصار كل واحـــد من المسلمين برؤيته الفـــرنج كالهائم الولهان . . . الخ – المترجمـــان ﴾ .

٧٢- ﴿ القيسارية – والجمع قياسر – : هى السوق التجارية العامة ، انظر شرحا وافيا لهذا اللفظ فى :

Dozy, Supp. Dict. Arabes, II, p. 432 – المترجمان ﴾ .

٧٣- ﴿ الخان – والجمع خانات – : يطلق على الفندق الذى تكدس فيه البضائع والسلع للبيع بالجملة ، وينزل فيه التجار عادة للمبيت به – المترجمان ﴾ .

٧٤- ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٧ أ) ثم إنه لما حصل الغلاء بين أهل الاسكندريه ، الذين فروا من ملة النصرانيه ؛ منهم من باع ما عليه من قوطه وفاضل قميص ، ومنهم من باع ما يتدفأ به من جبة فرو (و) مصيص ؛ وذلك لخروجهم من بلدهم سرعه ، وليس مع بعضهم درهم ولا قطعه ؛ بل تركوا ديارهم مغلقة الأبواب ، كسرتها ورتعت فيها الفرنج الكلاب ؛ فنهبتها (مع) الحوانيت والفنادق ، وحملت ما فيها على الجمال والحمير والأيانق ؛ ثم قتلوا من اختفى عند مصادفتهم له من كبير وصغير ، وعرقبوا المواشى فنها هالك وكسير ؛ ثم إنهم أحرقوا القياسر والخانات ، وأفسدوا (فى) الدواوين والبنيات ؛ وكسر كل علج مارد ، قناديل الجوامع والمساجد ؛ وعلقوا على السور أعلام الصلبان ، وأسروا الرجال والنساء والإ(ما)ء والولدان ؛ وقتلوا كل شيخ عاجز ، حتى المجانين والبلهاء والعجائز . . . (١٠٧ ب) ثم إن الفرنج فعلوا بالاسكندرية - ما تقدم ذكره - من نهب وكسر ، وقتل وإحراق وأسر ، من عصر يوم الجمعة إلى آخر يوم السبت ثانية . . . الخ - المترجمان ﴾ .

٧٥- ﴿ قارن هذا التاريخ (ثانى صفر) بما جاء عن المدة التى أقامها الفرنج بالاسكندرية كما ورد فى « الإلمام » - وهو ما أثبتناه بالحاشية رقم (١٣٠) - وهو ما ساقه أيضا Kahle فى ترجمته للنص العربى ، فى صفحة (٥١) من هذه الترجمة . والذى يبدو أن Kahle قد وهم فى تحديد التاريخ بثانى صفر ، إذ لم يرد ذكر هذا الشهر فى النص العربى الذى ترجمه Kahle هنا ، ولكن المذكور هو : « . . . . من عصر يوم الجمعة إلى آخر يوم السبت ثانيه » ، (راجع الحاشية السابقة) ، ويعنى هذا أن الفرنج قاموا بعمليات النهب والسلب ابتداءاً من يوم الجمعة ٢٢ المحرم إلى ثانى يوم يليه وهو السبت ٢٣ المحرم ، وهذا واضح فى النص العربى الذى أشرنا اليه هنا عن الحاشية السابقة كما ذكرنا . وعلى كل حال ، يوافق يوم السبت الذى أشار إليه Kahle فى مقاله غرة صفر وليس ثانيه ؛ انظر فى ذلك :

محمد مختار ، كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية ، الطبعة الأولى ، بولاق مصر ، ١٣١١ هـ - المترجمان ﴾ .

٧٦- كانت المعاريج منطقة تلاصق أحمد التلال بالاسكندرية ، وهو ما يسمى الآن بكوم الدكة .

﴿ رجعنا للتأكد من هذا التحديد إلى أستاذنا الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، فقال : « هكذا فسر Kahle المعاريج ، ولم يرد فى النصوص العربية ما يؤكد ماذهب إليه Kahle ؛ والمتواتر أن كوم الدكة هى نفس المنطقة المعروفة فى المصادر العربية باسم كوم الدماس . . . أ هـ » . هـذا ، وقد بدىء فى إزالة هذا الكوم فى سنة ١٩٥٦ حتى سنة ١٩٥٨ - وقد صدرت مقاله Kahle فى عام ١٩٤٠ - بينما لا يزال مكانه يحتفظ بنفس الاسم - المترجمان ﴾ .

٧٧- ﴿ كذا فى نسخة برلين ، وفى نسخة الهند : (وفندق الطبيعة) - المترجمان ﴾ .

٧٨- كان نجم الدين الدماميني من فئة تجار الكارم بالاسكندرية ؛ راجع :
Quatremère, in Note. et Extr., XIII, 1838, S. 214, Note 1
وقد أفاض Quatremère الكلام فى المرجع السابق وكذلك فى Note. et Extr., XII, 1831, S. 639 عن طائفة تجار الكارم ودورهم بين التجار ومن انحدار أصولهم من افريقية ، وسيطرتهم على تجارة التوابل . راجع :

Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Age, II, 59, Note 6.

٧٩- كان جامع الجيوشى فى الأصل كنيسة تعرف باسم كنيسة أثناسيوس Athanasius التى شيدت فى عام ٣٧٠ م ثم تحولت إلى مسجد . وقد أعاد أمير الجيوش بدر الجمالى تعمير هذا المسجد فى عام ١٠٨٥ - ١٠٨٦ ؛ راجع :

van Berchem, Corpus, I, 702 ، وأطلق عليه اسم جامع الجيوشى نسبة إلى أمير الجيوش ، وهو الجامع الذى يعرف اليوم باسم جامع العطارين . وتوجد صور مرسومة لهذا الجامع فى :

Description de l'Égypte, Antiquités, V, pl. 38 f.

٨٠- ﴿ الدرابزى : هو السياج الذى يحف بالدرج ، وغالباً ما يكون من الخشب ، كشأن السياج الى جانبى المنبر . وقد ورد هــذا اللفظ فى موضع آخر من المخطوطــة برسم « درابزين » ، وهو ما يتداوله العامة فى أيامنا هــذه - المترجمان ﴾ .

٨١- من الصعب علينا أن نحدد الأماكن التى ذكرها المؤلف هنا بالنسبة لكل من جامع الجيوشى وباب رشيد . إلا أننا إذا ذهبنا إلى أن المؤلف قد قام - إلى حــد ما - بوصف أماكن المدينة المخــربة حسب توقيت وقوع التخريب بها ، نراها تتركز فى المنطقة الواقعة من العطارين حتى باب رشيد . فمن المحتمل إذن أن المحجة كانت تقع قريباً من باب رشيد ، وعلى وجه التحــديد جنوبى الشارع الذى يؤدى إلى هذا الباب . ولقد حدد هــذا الموضع مهندسو الحملة الفرنسية بشىء من الدقة فى تخطيطهم للمدينة . ويتبين بذلك ماقرره مؤلفنا (الورقة ١٠٦ ب) من أن سكان المحجة قد دافعوا عن أنفسهم بقذف الفرنج بالأحجار من منازلهم ، فخشى الفرنج لذلك أن تطأ أقدامهم هذه المنطقة . وعلى ذلك ، ظل هذا الجزء من المدينة دون أن تناله يد التخريب تقريبا .

٨٢- ﴿ المقصود بالكيتلاتيين : التجار من أهــل قطلونية بأسبانيا - المــترجمان ﴾ .

٨٣- ﴿ فى نسخة الهند : (الشباعين البياعين) ، وما بالمتن - عن نسخة برلين - أصح - المترجمان ﴾ .

٨٤- هؤلاء البياعون هم باعة منتجات المناطق الاستوائيــة ، وكان مما يبيعونه الزيت والعسل والسمن فى أوعية مختلفة .

٨٥- المقصود هنا هو الملك الناصر قلاون الذى حكم على فترات متقطعة فيما بين ٦٩٣/١٢٩٣ و ٧٤١/١٣٤٠ ؛ راجع :

Asin Palaciòs, El Fare de Alejandria (Al Andalus, I, 1933, S. 281) .

فقد أشار (وسجل ذلك أيضاً ابن بطوطة فى رحلته عند زيارته لمصر فى عامى ١٣٢٦ و ١٣٤٩) إلى أن الناصر - بعد سقوط المنارة القديمة - بدأ العمل فى بناء منارة جديدة على طراز القديمة تقع فى مواجهتها ، إلا أنه توفى قبل أن يكمل هذا البناء . وتوجد هنا إشارة إلى تكملة ابن عرام حاكم الاسكندرية لبناء هذه المنارة الجديدة قبل الوقعة بقليل ، أى فى عام ١٣٦٤ أو ١٣٦٥ . ويقال إن باب هذه المنارة قد شوهد فى جزيرة قبرص .

{ كذا ذكر الاسم فى نسخة برلين ، وقد أخطأ فيه أيضا Kahle فى الحاشية التى نعلق عليها الآن ، وربما سقط لفظ (بن) بعد الناصر ليصح الاسم وبالتالى التعليق الذى أورده Kahle . وقد جاء الاسم صحيحاً فى هذا الموضع من نسخة الهند ، فهو : (الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاون) ؛ راجع مزيداً من المعلومات عن اهتمام الناصر محمد بهذه العمارة فى : جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، ص ١٣١ - ١٣٢ ، الاسكندرية ١٩٦٧ - المترجمان } .

٨٦- { جاء مكان هذه العبارة فى نسخة الهند : (من الفرنج قبل نزولهم) - المترجمان } .

٨٧- { فى نسخة الهند : (مصلى الأعياد وعمود) - المترجمان } .

٨٨- { ورد هذا اللفظ فى كل من نسخة برلين ونسخة الهند : (اللذان) المترجمان } .

٨٩- Silber - Umrahmungen . والترجمة الموجودة هنا مأخوذة من :

Ch. Kuentez الذى ذكر أن كلمة (بقا) كلمة تركيـة تعنى (Col) ، والمقصود بها هنـــا : « حلية دائرية ، عبارة عن شريط زخـــرفى يدور حول التحفـــة (المراد زخرفتها) » .

٩٠- ﴿ هذا اللفظ ساقط فى نسخة الهند - المترجان ﴾ .

٩١- ﴿ فى نسخة الهند : (بها) - المترجان ﴾ .

٩٢- ﴿ العرابد ، هم النهابة من الجند Maraudeurs ؛ راجع :

Dozy, Supp. Dict. Arabès, II p. 108 - المترجان ﴾ .

٩٣- ﴿ فى نسخة الهند ؛ (مأربهم) - المترجان ﴾ .

٩٤- ﴿ هذا اللفظ ساقط فى نسخة الهند - المترجان ﴾ .

٩٥- ﴿ فى نسخة الهند : (فأحرقها) - المترجان ﴾ .

٩٦- أورد ابن إياس ، مخطوطـة فاتح ، رقم ٤٢٠٠ ، ورقـة ٥٨ ب ، قائمـــة بأجناس هـذه المراكب ، فذكر منها أربعة وعشرين غرابا للبنـادقة ، وغرابين للجنوية ، وعشرة أغربة للروادسة ، وخمسة للفرنسيسية ، وماتبقى فللقبارصة .

﴿ وقد فات Kahle تلك القائمة التى أوردها صاحب « الإلمـام » نفسه فى (١٢٣ أ) من نسخة برلين التى اعتمد عليها ، والتى يقول فيها النويرى : « أتاها - يعنى الاسكندرية - مراكب حربية مجمعة من أجناس مختلفة . قيـل إن البنادقة أتت معه إليهـا فى أربعـة عشر غرابا ، والجنوية فى غـــرابين ، والروادسة فى عشر(ة) غـربان ، والفرنسيسيين فى خمـ(ة) غربان ، والبـاقى من جزيرة قبرس » . والمشاهد أن ابن إياس يأخذ عن صاحب « الإلمام » - أو عن آخر نقـل عنه - ، ونص ابن إياس يتفق وما ورد فى « الإلمـام » إلا فيما يختص بعدد غربان البنادقة - المترجان ﴾ .

٩٧- ﴿ كذا فى نسخة برلين ، وفى نسخة الهند : (علامته) ، وهذا أوقع - المترجمان ﴾ .

٩٨- ﴿ فى نسخة الهند : (منها) - المترجمان ﴾ .

٩٩- ﴿ مابين الحاصرتين مطموس فيما بين أيدينا من نسخة برلين المصورة ، وما هنا عن نسخة الهند - المترجمان ﴾ .

١٠٠- من المعتقد أن المؤلف يشير هنا إلى سيطرة الفرنج على مدينة طرابلس الغرب طيلة اثنتى عشرة سنة تمتد من سنة ١١٤٦ إلى ١١٥٨ .

١٠١- استولى الصليبيون على مدينة أنطاكية فى عام ١٠٩٨ ، وظلت ١٧٠ عاما فى أيدى المسيحيين .

١٠٢- ذكر خليل الظاهرى (زبدة كشف الممالك ، نشر Ravaisse ، ص ٤٠) شيئا عن قصر السلاح فى قوله : « وبالثغر قصر السلاح مملوء بالعدد المتنوعة ، حتى إن لو جاء إليه أهل الديار المصرية لكفاهم فى اللبوس » .

١٠٣- ﴿ ورد هذا اللفظ فى نسخة برلين : (الزربية) ، وكذا نقله Kahle فى مقاله . والتصحيح هنا عن نسخة الهند - المترجمان ﴾ .

١٠٤- ﴿ هذا اللفظ مطموس فى نسخة برلين ، وما هنا عن نسخة الهند - المترجمان ﴾ .

١٠٥- ﴿ كذا وردت العبارة فى نسخة برلين ، بينما جاء فى نسخة الهند وقد طمس بعضه بفعل الترميم ما يلى : (السلاح . . . . سر السلاح المذكور على قاعات الرماة) - المترجمان ﴾ .

١٠٦- ﴿ ورد هذا اللفظ فى كل من نسخة برلين ونسخة الهند : (ستين) - المترجمان ﴾ .

١٠٧ - ﴿ رسم هذا اللفظ فى نسخة برلين : (القنابر) ، وهـــو تحريف لما أثبتناه فى المتن كما أنه ورد فى نسخة الهند (العنابر) بالباء الموحدة . وقد نقله Kahle بنفس التحريف الوارد فى نسخة برلين ، وترجمـه إلى الألمانية بمعنى Keulen أى الهراوات ، وأتبع هذه الترجمة بعلامة (؟) دلالة على شكه وعدم تأكده من معناه ، وإن كانت الترجمة قريبا من المراد . والعنايز (ومفردها : عنزة - بفتحة على الحروف الثلاثة الأولى -) اسم من أسماء الرماح ؛ يقول ابن هذيل ، حلية الفرســـان ، ص ٢٠٢ ، فى شرحها : « العنزة ، وهى عصا فوق الهراوة فيها « زج » ، وهى من الســـلاح لإمكان الدفع بها ، والزج فيها يشبه السنان وإن لم يكنه » . انظـــر : نعمان ثابت ، الجندية فى الدولة العباسية ، ص ١٨٤ ، ففيه : « العنزة ، قدر نصف رمح » ، ويضعها نعمان ثابت فى قائمة أنواع الرماح ؛ انظر أيضا : عباس محمود العقاد ، عبقرية عمر ، ص ١٣٠ ، هـ ١ ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٤٨ . وقد أخطأ Dozy فى تفسير العنزة على أنها السهم la flèche ؛ راجع : Supp. Dict. Arabes, II, p. 181 - المترجم ﴾ .

١٠٨ - ﴿ راجع ما فات هنا بالحاشية رقم (٤٩) - المترجم ﴾ .

١٠٩ - ﴿ قرقل - والجمع : قرقـــلات - ضرب من الدروع ؛ انظر : Dozy, Supp. Dict. Arabes, II, p. 336 - المترجم ﴾ .

١١٠-١١٣ - ﴿ هذه المصطلحات تدل على المقصود منها ، فهى أدوات لوقاية أجـــزاء الجسم المذكورة ، وهى تصنع عادة من المـــواد الجلدية أو المعدنية - المترجم ﴾ .

١١٤ - ﴿ جاء فى Dozy, Supp. Dict. Arabes , II, p. 418 : « قوس اللولب ، هو القوس الذى يوتر (يشد) بآلة معينة » . قارن ما جاء هنا بما ورد بالحاشية رقم (٤٥) - المترجم ﴾ .

١١٥- { راجع مافات هنا بالحاشية رقم (٤٥) - المترجمان } ،

١١٦- { الركاب - والجمع : ركب ، وركابات ، وأركب —: ما يعلق فى السرج فيجعل الراكب فيه رجله - المترجمان } .

١١٧- { يقصد بهـا نوع من الحجارة الصلبة التى تستخدم قذائف للمنجنيقات — المترجمان } .

١١٨- { من مكائد الحرب وذخائرها وصنوفها ، راجع : نسخة الهند من « الإلمام » - مما لم الحق به نسخة برلين — ، ٢٠٦ أ — ٢٠٧ ب ، ٢٠٨ أ — ٢٠٩ أ ، ٢٠٩ ب — ٢١٠ ب : المترجمان } .

١١٩- { جاء هذا اللفظ فى نسخة برلين ، (كثيرا) ، والتصحيح من نسخة الهند — المترجمان } .

١٢٠- { فى نسخة برلين : (كمينا) ، والتصحيح من نسخة الهند - المترجمان } .

١٢١- من المرجح أن المقصود بذلك ما كان يعرف باسم Fort Triangulaire الذى كان قائما فى جنوبى غربى السور العربى ، والذى وجد مرسوما بشكل واضح فى تخطيط علماء الحملة الفرنسية لمدينة الاسكندرية . وقد اهتم به الفرنسيون وجعلوه فى حالة صالحة للقيام بمهمة الدفاع ، . إلا أنه دمر تدميراً تاما بالمتفجرات فى عام ١٨٠١ ؛ راجع : Gretien le Père, Mémoire sur la ville d'Alexandrie, in Description de l'Egypte, XVIII, 1 (Paris 1826) , S. 416.

١٢٢- { هو تقى الدين أبو الحسن على بن عبد الجبار الشاذلى . ولد فى عام ٥٩٣/١١٩٧ فى إقليم غمارة بالقرب من مدينة سبتة بالمغرب الأقصى ، وعاش معظم سنى حياته فى تونس ومصر ، وأنشأ مدرسة صوفية كبيرة ، مازال أتباعها وتلاميذها ينتشرون فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ويكونون

فــرقا صوفية كثيرة تشعبت كلها من الفرقة الأصلية التى أنشأها ونسبت إليه ، وهى الفرقة الشاذلية . وتوفى أبو الحسن الشاذلى فى عام ٦٥٦/١٢٥٨ فى حميثرا ، وهى موضع فى الصحراء المؤدية إلى عيذاب على البحر الأحمر ، ودفن حيث مات . انظر ترجمة وافية له فى : جمال الدين الشيال ، أعــلام مدينــة الاسكندرية فى العصر الاســلامى ؛ ص ١٦٢ - ١٩٠ ، نشر دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ - المترجمان ﴾ .

١٢٣- ﴿ راجع ما فات هنا بالحاشية رقم (١٠٣) - المترجمان) .

١٢٤- ﴿ ورد هذا اللفظ فى نسخة برلين : (أعلا) - المترجمان ﴾ .

١٢٥- الأصح أن نسميهـا أبواب البحر . قارن ذلك بملاحظة خليل الظاهرى (ص ٣٩) : « وللثغر عدة أبواب محكمة حتى إن على كل الباب منها ثلاثة أبواب من حــديد » .

١٢٦- ﴿ المنجنيق - بفتح الميم وكسرها - أو المنجنوق ، أو المنجميق ، والجمع : مجانيق ، ومناجيق ، ومنجنيقـات ، لفظ أعجمى معـــرب ؛ انظر : أبو المنصور الجواليقى ، المعرب من الكلام الأعجمى على حـــروف المعجم ، تحقيق محمـــد شاكر ، ص ٣٠٥ - ٣٠٧ ، القاهرة ١٣٦١ هـ . وجاء وصف المنجنيق فى : القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج٢ ، ص ١٤٤ ، القاهـــرة ١٩٢٨ ، كما يلى : « آلة من خشب له دفتـان قائمتان بينهمـا سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، تجعل كفة المنجنيق التى يجعل فيهـا الحجر يجذب حتى ترفع أسافله الأعلى أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئـاً إلا أهلكه » . وانظـــر أيضا شروح الدكتور جمال الدين الشيال على هذه الآلة الحربية فى : جمال الدين بن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، ٢٠٨ ، القاهرة ١٩٥٣ ؛ وراجع : الحسن بن عبد الله ، آثار الأول ، ص ١٩١ - ١٩٣ : المترجمان ﴾ .

١٢٧ - ﴿ الاستعمالات هي الملابس والثياب - المترجمان ﴾ .

١٢٨ - ﴿ الكدس - والجمع أكداس - هو الكوم ، انظر : Dozy, Supp. Dict. Arabes, II, p. 449 . وقد رجعنا في تحديد هذا المكان وفي التعريف به إلى أستاذنا الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، فقال : « ثبت من كتاب « الإلمام » أن الكدس موضع يقع في جهة الباب الأخضر (انظر المتن هنا) . ولما كان الكدس يعني الكوم ، فلا يوجد في هذه المنطقة سوى كوم وعلة ، وهو أحد أكوام ثلاثة كانت تتميز بها طبوغرافية الاسكندرية في العصر الإسلامي هي : كوم وعلة ، وكوم الدكة وكوم العافية » - المترجمان ﴾ .

١٢٩ - ﴿ إلى هنا ينتهي ما يترجمه Kahle حرفيـاً عن « الإلمام » . هذا ، وقد عقد الدكتور السيد عبد العزيز سالم في كتابه - الذي أشرنا إليه أكثر من مرة - فصلا كاملا فيه دراسة شيقة عن غزوة القبارصة للاسكندرية والآثار التي ترتبت على حركتهم هذه ؛ قارن ما ورد في هذا المقال عن هذه الغزوة بما جاء في الكتاب المذكور ، ص ٣٠٩ - ٣٦٨ : المترجمان ﴾ .

١٣٠ - ﴿ جاء في « الإلمام » : « (١١٠ ا) . . . وكانت مدة إقامة الفرنج من حين أتوا إلى الاسكندرية وظفروا بها الى آخر من سافر منهم ثمانية أيام ، وذلك أنهم أتوها يوم الخميس حادي عشرين المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة وسافر آخرهم يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر المذكور . وكان سبب إقامتهم تلك الأيام لينظروا من البحر من يأتي من النجدة من مصر . فلما عاينوا وهم بمراكبهم العساكر أقبلت كالجراد المنتشر يقدمها الأمير الأتابكي يلبغا الخاسكي ، سافروا . . . الخ » . (انظر أيضاً في رحيلهم . لوحة ١٨٦ ا) - المترجمان ﴾ .

١٣١ - (لم يحضر السلطان - فى الواقع - إلى الاسكندرية عقب الوقعة مباشرة ليشرف بنفسه على تلك الاستعدادات الحربيـــة بالمدينة كما ذكر Kahle هنا ، وإنما كان الذى أتى الاسكندرية الأمير يلبغا الخاصكى ، وهو الذى أشرف بنفسه على عمارة ماخربه الفرنج من منشئات مدنية وحربية ، ونفذ ذلك صلاح الدين بن عرام ؛ يدل على ذلك النص التـــالى الوارد فى « الإلمام » - بجانب الإشارة الواردة فى الحاشية السابقة :-

« (١٨٦ ا) . . . ولما دخل الأمير يلبغا الخاصكى الاسكندرية ورأى وشاهد ما آل أمرها إليه من الهدم والحـــريق والقتلى المطروحة بظاهرها وباطنها ، بكى على ما أصابها وأصاب أهلها فى أيام عزه وحكمه ، فلام نفسه على عدم التركيز بها حين بلغه أن العمارة بجزيرة قبرس . وأمر حينئذ الأمير صلاح (١٨٦ ب) الدين [بن عـــرام] بدفن القتلى ، فدفنها . وأمده بالأموال لعمارة ما خرب منها . فاجتهد فى العمارة ، وشق خندقا إلى جانب السور الذى توصلت منه الفرنج إلى الاسكندرية - لم يكن قبل ذلك - فعمره فى أسرع وقت . وهذا الخندق المتجدد محاذ للموضع المسمى من داخـــل السور بدار الصناعة وديوان الخمس ومجارى الأقنيـة ، ووصله بالخندق الأصلى الذى أوله ساحل بحر السلسلة والباب الأخضر إلى قلعة ضرغام ، فزاد فى القلعة المذكورة ، إلى أن وصل ببحـر الميناء الشرقية وكأن البحر فى الزمان القديم يضرب فى السور إلى عند قلعـــة ضرغام ، فلذلك تركت المتقدمون ذلك الموضع بغير خندق ، ثم انطرد البحر عن السور بعـــد ذلك ، فصار ذلك المكان بغير خندق ، وطال الأمن وعدم الخوف ، فأهملت المسلمون ذلك للموضع من حفر الخندق . وضرب الدهر ضرباته لإطالة الزمان وتغير الأوقات وتقلب الدول ، وصارت المسلمون فى أمان واطمئنان ليس عندهم [هم] ولا نكد لإطالة الأمد ، فوجد العدو مكانا خاليا من خندق ورجال وعدد . كما تقدم ذكر غلق باب الديوان خوفا من أن تدخل البضائع البلد منه بغير حق ، فتوصل [العـــدو] بسبب غلق بابه ومنع المقـــاتلة من

طلوع سوره من تلك الجهة إلى البلد فجاس فى خلال الديار وعربد . ثم إن الأمير صلاح الدين بن عرام عمر فى ولايته الثانية خندقا غربى السور ، وهو المكان المعروف بالمطرق ، أوله قلعة الباب الأخضر وآخره القلعة المجاورة لدار السلطان وباب الخوخه ، وصله بالخندق المحيط بالاسكندرية من جهة البر ، فصار ذلك خندقا ومطرقا وممكنا لدخول نجدة المسلمين منه فى خفاء لإقامة حائطه الذى يلى البحر إلى أن يخرجوا منه على حين غفلة إلى الجزيرة وقت حرب الفرنج إن أتوا لذلك . ثم إنه أيضاً عمر المطرق الشرقى المحاذى لدار الإمارة . ثم غرق أيضاً الحجار بالمينة الغربية حفظا لمراكب المسلمين ، وزم فوهة التغريق بسلسلة ضخمة . وعمل أيضا مشط حديد لباب الصناعة القريبة من جهة المطرق المذكور ، تخرج منه الرماة الى المينة وتدخل منه وقت الحرب وأبواب الاسكندرية حينئذ مغلقة ؛ وإن دهم العدو المسلمين ، دخلت المسلمون منه بحماية رماة السور التى بأعلاه إيام إلى أن يدخلوا جميعاً . فإذا حصلوا داخله ، أرخى عقيب دخولهم المشط الذى لا يرفعه غير المسلمين من (١٨٧ ا) أعلى السور بالسرياقات الدائرة المحيطة على لوالب الأتراس لثقله وجفوه . وكانت عمارته للمطرق الغربى وباب المشط الحديد فى سنة تسع وستين وسبعمائة . . . فالأمير صلاح الدين بن عرام ـ المذكور ـ هو الذى غرق الحجار ، وحفر الخندق الجديد والمطرقين وما خرب من الاسكندرية ، وهو الذى أقام أبواب البحر الأول والثانى عوضاً عن البابين الذين أحرقتهما الفرنج . وكذلك أقام بابى رشيد التى أحرقتهما أهل الاسكندرية حين الوقعة لتجد النجدة الآتية من مصر مكانا مفتوحا تدخل منه إلى قتال الفرنج بها . كذلك أحرقت المسلمون باب الزهرى لتدخل النجدة منه أيضاً . ثم إن الأمير صلاح الدين أقام أيضاً أبواب دار الصناعة الشرقية وأبواب الديوان ، وسد الباب الأخضر وباب الخوخه وباب الزهرى وباب الأقفية ؛ لحصل بعمله المستين ، النفع للمسلمين . . . (١٩٣ ا) . . . ثم إن الأمير يلبغا جد فى عمارة المراكب

الحربية بمصر والشام ، لجرز منها مائة وخمسين مركبا منها طرايد الخيل وشوانى الغـــزو . فلما كملت العمارة المصرية ـ وكانت مائة مركب أشحنها بالرجال الأبطال ، وبالأسلحة الثقال ـ وأمر الغز أن تلبس الزرد النضيد وصفحات الحديد بالبر ، فلبستها وركبت خيولها . . . الخ » ـ المترجمان ﴾ .

١٣٢ ـ قام الدكتور عـــزيز سوريال عطية بدراسة لجـــزأى مخطوطة برلين (والجزء الثالث منها يوجد فى القاهـــرة) وأكد الافتراض الذى ذهب إليـــه Gildemeister (a. a. O., S. 431 ; vgl. Herzsohn, a. a. O., S. XII, Note b) أن مؤلف هذه المخطوطة هو محمد بن قاسم بن محمـــد النويرى المالكى السكندرى ، وقـــد ورد اسم النويرى فى اشعار له بمخطوطـــة برلين (ورقة ١٢٠ ا ، وورقة ١٦٩ ا) ؛ قارن ذلك بما أورده حاجى خليفـــة (نشر Flugel ، ج ٢ ، ص ١٠٧) وابن حجـــر العسقلانى (الدرر الكامنة ، نشر Krenkow ، ج ٤ ، ص ١٤٢) .

﴿ لم يعتبر Kahle صفحة العنوان الصفحة الأولى من نسخة برلين ، وهو غير ما أخذنا به هنا فى ترقيم صفحات المخطوطة ، وعلى ذلك يقابل موقع الورقتين ١٢٠ ا و ١٦٩ ا اللتين ذكرهما Kahle هنا اللوحتين ١١٩ ا و ١٦٨ ا ؛ قارن ذلك بما جاء هنا فى ص ٤١ و ه ٢٤ بنفس الصفحة .

ولقد رثى النويرى مدينة الاسكندرية بقصيدة طويلة تستغـــرق من (١١٧ ا) إلى (١١٩ ا) ، ومطلعها :

عاذلى لا تلم وخل ملامى ∴ فعيونى بعد الدموع دوامى

ويقول فيهـــا :

فالنويرى قد رثى الثغر حقا ∴ عام سبع ، ياويحه من عام

بعد ستين ، بعد سبع مئين ∴ وأتى بالتـــاريخ الإعلام

وفى قصيدة أخـــرى له (١٦٨ ا) يتوعد فيها القبرسى لو سولت له

نفسه بالإغارة مرة أخرى على الاسكندرية ، ويتفاءل بذلك فيبدأهما بقوله :

الهنا للمسلمين بالظفـــر ∴ من أعادى الله عباد الصور

ويقول فيهـــا :

فالنويرى قال ذا تفاؤلا ∴ قبل أن يأتى ، وللفأل أثر

هذا ، وقد ذكر النويرى اسمه أيضاً فى أبيات أخرى موجـودة فى نسخة الهند (١٦٤ ا) وساقطة فى نسخة برلين ، فيقول فى معرض ذكره لترميم جامعى الاسكندرية الشرقى والغربى فى عام ٧٧٢ هـ :

لسان النويرى بالمديح مقصر ∴ بما قاله فى الجامعين وأودعا

كما ورد اسم النويرى مرة رابعة فى نسخة الهند (٢٦٤ ا) — ولم تلحق نسخة برلين بهذه الصفحة — فى أبيات قصيدة له يمدح بهـا الرايس إبراهيم التازى ، رايس دار الصناعة بالاسكندرية . وقد جاء اسمه فى هـــذا البيت محرفا ، كما انمحت فيه الكلمتان الأخيرتان ـ بفعل الرطوبة ـ من الشطر الثانى:

فالمويره سره الفعل الذى ∴ فعـــل التازى ... ...

وصحته كما ورد فى الجزء الأخير من نسخة دار الكتب (١٠٣ ا) :—

فالنويرى سره الفعل الذى ∴ فعل التازى الهزبر الغازى

أما بلده (النويرة) ، فقد ذكرهـا صراحة فى (١٦٥ ب) من نسخة الهند — وهى ساقطة فى نسخة برلين — ولهذا النص أهميته ، إذ هو يلقى ضوءاً على نشأته الأولى ومهنته قبـــل النزوح إلى الاسكندرية للاستقرار بها حيث اشتغل ناسخا كما أشار هو من قبل (راجع ماقلت هنا بالحاشية رقم ٢٣) ؛ فيقول فى صدد خروجه من الاسكندرية فارا بنفسه وبأهله حين الوقعـــة :

« ... ولما ظفر القبرسى بالاسكندرية فى آخر المحرم سنة سبع وستين

وسبعمائة وشرد غالب أهلها منها ، خرجت بعيالى معهم ، فقصدت بلدة النويرة بالصعيد الأدنى من مصر ، (وكان) إذ ذاك مدرس المدرسة المالكية بمدينة الفيوم الشيخ الإمام العالم شرف الدين أبو حفص عمر بن الشيخ الإمام العالم تاج (الدين) — المدرس بها قبله — ابن الشيخ الامام العالم شرف الدين سيد الناس ، فصار متشوقا لرؤيتى ، وذلك للصحبة التى بينى وبينه ببلد النويرة فى المكتب ، وبالاشتغال بالقاهرة بالمدرسة المنصورة ، لاخبره بما اتفق بالاسكندرية ، فمدحته بأبيات ... الخ » — المترجمان ﴾ .



اللقاء بين التصوف الاسلامى والتجريد التشكيلى

محمود حلمى

اذا كان الموضوع موضوع الفن ومدارسه فلا يعنينا هنا الا المدرسة التجريدية فى مرحلتها التى نرجعه فيها نفسها بالمفهوم الصوفى ، أى أننا لا يعنينا من الفن الا الاتجاه الذى تحددت معالمه داخل مدار خاص ابتعد بها عن شكلها الأول الذى ذهب بالالوان والخطوط الى الآفاق التى تتنفس فيها الموسيقى ، وقد تحقق هذا الاتجاه على يدى « فاسيلى كاندنسكى » الذى حول الموضوع التشكيلى الى لاموضوع فاعطت الصورة للعين نفس المذاق الذى تعطيه الموسيقى للاذن ، وهكذا حطم « كاندنسكى » الحواجز الفاصلة التى كانت تفصل بين الموسيقى والتصوير التشكيلى ، كما يقول سير ميكل سادلر » ، وهذا هو مبدأ وحدانية الفن الاسلامى الذى يعرفه دكتور « أرنست كينل » : « ريشة الفنان تصور الموسيقى »

ثم جاء الشكل الآخر الذى تحولت اليه الصورة التشكيلية ، وكان هذا من ابداع الفنان الهولندى « بيت مندريان » وقد اتسم هذا الاتجاه بالسمت الزخرفى الهندسى ، وتبعية الموضوع التشكيلى للشكل الهندسى هذا ليس بالأمر الجديد على الفن ذاته حيث يمكننا أن نتلمسه بوضوح فى الارابسك الاسلامى غير أن الفن الاسلامى فى جوهره يتميز بأنه « تجريد روحى » ، وهذه الصفة جاءت نتيجة صياغة النشاط الانسانى كله بتلك المبادىء الخالصة والقيم الصافية التى انبعثت من روح العقيدة الاسلامية .

وجدير بالذكر أن نضع موضع الاعتبار أن وجهة التلاقى بين الفن التجريدى والتشكيلى المعاصر سواء فى شكله التعبيرى أو فى اتجاهه الهندسى وبين الفنون الاسلامية ، ان كلا الفنين الاسلامى والتجريدى المعاصر يتناولان اللاموضوعى ، وان كلا الفنين يرفضان المحاكاة والتقليد ، هذا من الوجهة « العرضية » ، أما من وجهة « الجوهر » فان نقطة التلاقى عندهما نجدها فى أن الفن عند كليهما يعمل من داخل ذاته ومن صميم نفسه ، وقد يستعير أحيانا من الخارج بعض أشكاله ولكن

روحه القائمة فى صميمه تبقى دائما وأبدا الحافز الرئيسى لقوامه الباطنى ومصب قوالبه ومبعث طرازه ومنبت مناحيه ومصدر الهامه .

وقد قال كاندنسكى ومندريان « عن أعمالهما هذه اللاموضوعية إنما قصد بها الابتعاد عن الواقع الموضوعى إلى واقع روحى أمثل . وكان يتوفن من قبلهما يصر على أن مؤلفاته التى ننظر اليها غالبا بوصفها خلاصة الموسيقى المطلقة البحتة ما هى إلا تعبير صادق عن فهمه لمعانى الحياة نفسها وصورها الباطنية .

أما الرواد الذين جاءوا بعد «كاندنسكى ومندريان» فقد تشعب الكثير منهم إلى مناح مختلفة وطرق متباينة ، ثم استقر الامر بالفنانين الذين رفضوا أن تكون التجربة تجربة حواس فجعلوا للصورة رموزاً وأشارات صوفيــة لها معان غيبية مجردة ووضعوا فيها حقيقة روحية تعبر عن جوهر الوجود ذاته ، ومن هنا كانت موضوعية اللاموضوع التى تناولت شكلا له وجود سابق على ماهيته ، وبهذا أصبح الفن التجريدى عملا حدسياً قبل أن يكون رؤية ، وتذوقه يحتم عمل البصيرة قبل أعمال البصر ، وعندما صور ديلونى لوحته النوافذ المفتوحة قالوا عنهـا انها نوافذ مفتوحة على حقيقة جديدة .

ولسنا هنا نتتبع حقيقة التصوف الإسلامى فى أسبابه الرئيسية ، وهل كانت نشأته الاولى قائمة على الركائز الروحية الخالصة التى ملأت أفئدة بعض المسلمين ، ومصدرها حياة الرسول الروحية مثلا . أما أن التصوف جنوح آرى إلى غيبية معينة تلمستها العقلية الآرية التى دخلت الاسلام ولم تفهم طبيعته الحقيقية ، أو هل هو استغراقة هندية سلبية أخذت سبيلها إلى الكيان العاطفى الاسلامى الذى عارض مظاهر البذخ والوان الترف الشائع فى المجتمع الاسلامى أبان العهد العباسى . أم أن التصوف الاسلامى ما كان إلا الجذور المرتدة إلى الافلاطونية الحديثة والتى كان لها وجود فى قاع ووجدان الناس الذين إمتزج بعضهم بالبعض فى رقعة متلاصقة قامت فيها وعاشت يوما تلك المدرسة . وإذا كانت هذه الاسباب كلها أو بعضها تعتبر تفسيراً إجتهاديا لاشكال التصوف الاسلامى وصورة فقط ، فان حقيقة التصوف الاسلامى تعبر عن حاجة النفس الانسانية إلى الاستكانة إلى منطقة روحية خالصة ،

وإلى تناول المعرفة بالحدس والذوق والوجدان ، وذلك لأن النفس الانسانية تشعر بالخواء عندما تجد نفسها بحكم الحياة المادية الصرفة منصرفة إلى حقائق المحسوسات وحدها بما يجعلها تعيش فى خواء من أثر تناولها الحياة فى شكلها الظاهرى ، وأعنى بهذا قصور النفس وعجزها فى تلك الحالة عن التفاعل مع الحياة فى جانبيها الروحى والمادى على السواء .

والتصوف الحقيقى أمر نادر كما يقول برجسون وأن بذوره قد وجدت فى كل مكان وزمان والصوفى العظيم إنما هو تلك الشخصية النادرة التى تستطيع أن تتجاوز الحدود التى عينتها للنوع البشرى ماديته .

ويجدر بنا أن نأتى على رأى الامام الغزالى فى حقيقة التصوف الاسلامى الخالص النابع من الانسان المسلم الذى لا يتبع غيره ولا يقلد أحداً ، يقول الامام الغزالى : « من قال أن الحقيقة تخالف الشريعة ، والباطن يخالف الظاهر ، فهو إلى الكفر أقرب ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فهى غير محصلة » .

ونلاحظ من حقيقة التصوف الاسلامى فى منطق الامام الغزالى أنه برىء كل البراءة من السلبية القاصرة التى أشرنا اليها فيما سبق ، فانه حينما رفض التباين كليا أو جزئياً بين الشريعة والحقيقة واعتبرهما شيئا واحداً ، فقد جمع بين طرفى الحياة المادى والروحى فى نسق واحد هو النسق الاسلامى ونظريته فى فهم الحياة .

وقد كانت حياة الامام الغزالى تطبيقاً لهذا المنهج سواء فى العقيدة أو فى السلوك ، فعنده من وجهة السلوك أن النفس الانسانية تستطيع أن تحقق كمالها الذاتى ، ومن وجهة العقيدة تظل الالوهية بعيدة عن أن تشاركها النفس كمالها المطلق أو أو تندمج بها أو تحل فيها . وغاية ما تتسع له طاقة النفس المتطلعة للكمال أن تقترب شيئا ما من أفق الالوهية الاعلى .

وهذا بعينه هو التصوف الاسلامى فى صميمه ، ويمكننا أن نجد له تعبيراً واضحاً فى لغة القرآن ، وهذا التعبير هو الربانية وهى كلمة وردت بصيغ متعددة فى كتاب الله . وقد أدرك المستشرق « جب » هذا المعنى وعبر عنه فى قوله

« أن التصوف الاسلامى ذاته قد شاد صرحه الشامخ على أسس النظرات القرآنية » .

والتصوف الاسلامى فى صميمه يعبر عن فلسفة روحية إسلامية خالصة ، سيان كانت هذه الفلسفة فى الوسائل أو الغايات .

وواضح بعد كل هذا أن نستبعد من مجال التصوف الاسلامى الخالص كافة الانحرافات والشطحات التى يمثلها الحلاج فى حلوله ، وابن عربى فى اتحاده ، والسهروردى فى شهوده ، وكل ماهو من هذا القبيل ، ويستبعد الامام الغزالى هذه الشطحات وغيرها من الافكار وعلى الاخص فكرة وحدة الوجود عن التصور الاسلامى الخالص فى قوله : « أن الله تعالى ذات واحدة مخالفة للحوادث ، وأنه بمقدار ما يتحقق فى النفس الانسانية من صفات الكمال الالهية ، يكون استعدادها لمعرفة الله وأن العبد عبد والرب رب ، ولن يصير أحدهما الآخر البتة . أما علمنا بالله فموقوف على إرادته تعالى » ، وبهذا المعنى الروحى العميق فهم الغزالى الالوهية فقرب الله من القلوب . ولقد تبلور التصوف فى نفسه فى قوله « ينتهى الامر إلى (قرب) يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل هذا خطأ » . وهذه أربعة أشكال من التصوف رفض الامام الغزالى ثلاثة منها لشطوحها وأخذ بالشكل الاول وهو « القرب » وجعله قوام تصوفه ، وهو هنا استمد جوهر هذا التصوف من القرآن الكريم ومن آياته التى تقول « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب » ، وكذلك « ونحن أقرب اليه منكم » ، وكذلك « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » .

وإذا تكلمنا عن المذهب التشكيلى التجريدى ، فعلينا قبل كل شيء أن نضع المذاهب الفنية التى تقدمته فى قاع الوعاء الفنى للثقافة الانسانية لان المذاهب السابقة تمدنا دائما بالخطوط الرئيسية التى بدونها لا يتسنى لنا فهم أى مذهب جديد .

وأهمية الاحاطة بهذه المذاهب تنحصر فى أن كل مذهب ما هو إلا حلقة من سلسلة تاريخ الفنون التشكيلية ، وكل حلقة بحكم وجودها الموضوعى تكمل ما قبلها

عدا انها أساس للحلقة التى بعدها ، والشكل الذاتى لكل حلقة يعبر عن مذهب من مذاهب الفن ، ولهذا يجب الالمام بكل هذه المذاهب الفنية المتقدمة لتكون كمدخل شامل عندما نريد أن نتعرف على المذهب التجريدى ، ومن الطبيعى أن يأتى هذا بعد أن نضع موضع التمييز الأصول والفروع داخل الاطار الكلى للفنون التشكيلية وذلك من ناحية تطورها ثم من ناحية قوامها الروحى لأن أى مذهب لا يتسنى له البقاء إلا إذا توفر له هذان الوجهان . هذا بعد أن نكون قد فرقنا بين الجذور الرئيسية والفروع الشكلية حتى نتمكن من السير فى طريق مستقيم نحو الفهم الواضح والإدراك الصحيح ، أو بعبارة أدق أن نضع أيدينا على الحقائق المرتبطة بعضها ببعض والتى كونت المذهب التجريدى ، ومن ثم تأتى الدراسة التحليلية على امتداد الزمان .

ونحن بهذا لا نضع المذهب التجريدى موضع الوضوح فحسب ، بل نضع جميع الاتجاهات الفنية المعاصرة ، ثم يبقى أن ننظر بعين الاعتبار ومن زاوية المستوى الكلى المعرفة الإنسانية آثار علم الاجتماع والاقتصاد والمناهج الفلسفية والأفكار السياسية ومدى الأثر المباشر وغير المباشر لا على المذهب الفنى فحسب بل على الوجود الموضوعى الإنسانى بجملته .

ويكمن جانب كبير من قوة الفن التشكيلى التجريدى فى تأثيره على حواسنا أولا ثم ينتقل التأثير إلى أعماق نفوسنا حيث لا تأثير مطلقاً للتذوق الحسى أو لمتسع الحواس كلها . وحيث تتكون الصلات الخالصة النقية التى تربط كينونة الإنسان بماهيته ووجوده الموضوعى بأصله الروحى . فالصورة ذات تفاعلين ، التفاعل الأول ينتهى إلى الإدراك الحسى ، والتفاعل الثانى يأخذ سبيله إلى المضمون الجوهر وهذا فيما أعتقد ما أراد أن يعبر عنه شبنهور فى تعريف معنى الموسيقى عندما قال « إن الموسيقى تكرار لعالم الحواس بأثره وانها الطريقة الأخرى للتعبير عن الجوهر » .

وهكذا تتجمع هذه الأطراف كلها لنحصل كما يقول دينس هويسمان على سلم تصاعدى من فن مزيف إلى ما يدنو من الفن ، أو من شبه الفن إلى الفن الخالص ،

وعلى ذلك يكون الفن التجريدى هو نهاية ما وصل اليه السابقون .

ولكن كيف يكون الفن التجريدى نهاية ما وصل اليه السابقون ؟ قبل أن نتناول هذا الأمر أحب أن آتى بكلمة لسانتيانا كتبت سنة ١٨٩٦ تعد إرهاصاً للتجريد التشكيلى المعاصر ، فقد كتب فى كتابه القيم « الإحساس بالجمال » عن تحليل قيم اللون فقال « تختلف قيم الألوان اختلافا بينـاً وهى تشبه فى ذلك القيم المختلفة التى للاحساسات الأخرى . وكما ان الروائح الذكية والفائحة والنغمات العالية او المنخفضة أو المقامات الكبرى والصغرى تختلف فيما بينها بسبب إختلاف آثارتها للحواس كذلك نجد أن اللون الأحمر يختلف عن اللون الأخضر والأخضر عن البنفسجى ولكل من هذه الألوان عملية عصبية خاصة بها ، ومن ثم كان لكل منها قيمة خاصة وهذه الصفة العاطفية للالوان لها علاقة بالصفة العاطفية للاحساسات الأخرى ، ولهذا فلا ينبغى أن نعجب إذا كانت درجة الذبذبة العليا التى تنتج صوتاً حاداً فى الأذن تنطوى إلى حد ما على نفس الاحساس الذى تولده درجة عليا من الذبذبة التى تنتج للعين لونا مثل اللون البنفسجى ، مع أن الكثيرين يعجزون عن إدراك هذه العلاقات فانه ليس من المستحيل أن ننمى الاحساس بها ، فن آثار اللون ما يلذ له الجميع ، فى حين أن بعضها الاخر يولد إحساساً بالنشاز يكاد يشبه النشاز فى الموسيقى . وإذا طورنا حساسيتنا هذه على مجال اوسع فقد يؤدى ذلك إلى ظهور فن جديد مجرد يعالج الألوان كما يعالج فن الموسيقى الصوت .

وهكذا نجد ان ما تحقق على يد كاندنسكى سنة ١٩١٠ جرى قبل ذلك فى الواعية الذهنية لجورج سانتيانا .

ولنرجع مرة أخرى إلى ما إنتهى اليه الرأى فى ان التجريد هو نهاية ما وصل اليه السابقون ، الدراسة التحليلية للفن تنتهى إلى أن روح الفن ما هى إلا شفافية الفنان وقدرته على إدراك حقائق الحياة خلال الجزيئات التى يتناولها بالتشكيل ، فالفن ربط ما هو جزئى ظاهر للعـــين باد للحواس وما هو مستتر خفى لا يدرك بالحـــواس .

وعلى هدى من يقين الفنان المتأمل بتخطى الحدود التى عينتها طبيعته كانسان ، وبعد أن نحدد العلاقة بين الرؤية كادراك وبين التصور التأملى ، وبعد أن نجمع بين التشكيل الزمانى المكان نبنى رأينا بان الصورة التجريدية عمـــل منبثق عن النفس الانسانية النقية متحقق فى ذات الفنان. فالفنان ولا شك قد تساءل عن هذا الكون المادى ... وهل هو وحده محور التفكير والعقل هو مركـز الثقل بالنسبة للحياة نفسها ... الفنان هنا يضع السؤال موضع المحاولة التى حاولها الإنسان المفكر المتأمل وما زال يحاولها منـــذ بدأ يتلمس الحقيقة ، الفنان الآن بعيداً عن أزمة الإنسان المعاصر التى يجب أن تسمى « نكبة الإنسان المعـــاصر » قد اهتزت نفسه المفاهيم الجديدة بعدما كانت أنفاسه تتلاحق وراء المذاهب المتعددة من الأتباعية الرومانتيكية والواقعية والانطباعية والحوشية والتعبيرية والتكعيبية والدادية والسريالية ، وهو بعد كل هذه المدارس ومؤثراتها وقف أمام أفق جديد بعد أن وجد نفسه قد تحولت عن التناسق الشكلى والانفعالات العاطفية والتأثيرية البصرية والجموح النفسى والمتاهات اللاشعورية ، لأن إدراكه الحسى الطبيعى لكل هذه المذاهب لم يعد له إنعكاس فى نفسه الصادية إلى معالم جديدة وحقائق مختلفة ، أنه قد تطلع إلى نوع من الفن يقوم على التأمل والكشف لأنه إدراك أن التأمل الذى يصير ذات عارفه خالصة متحررة ، وهـكذا يصير الفن كشفاً تشكيلياً وجدانياً قائماً على الحدس ، وهنا تقترب النفس الانسانية من قمتها لأنها بلا حدود ولا حدود تقترب من حافة عالم الحقيقة والجوهر . ومن ثم يقترب العقل الحدسى من العقل التأملى ، ومثل هـذا الاقتراب صعب البلوغ ولكنه ليس بالأمر المستحيـــل على المتصوفين .

الفنان عندما سلك هذا الطريق فقدحدد لنفسه أصعب المسالك وأشق الدروب ، أنه كان على بينة من أن غيره قد اختط طرقا اعتمد فيها على نظرة قاصرة لا ترى فى الحياة إلا أمراً واقعيا لا وجود له إلا داخل الظواهر المادية والتجربة الحسية فقط اعتماداً على العقل وقضاياه البحتة المرتبطة برابطة الاستنباط ومن هـــذا القبيل ما حاوله عالم النفس دى لاكروا من إثبات أن العمل الفنى ما هو إلا صنعة وعمل وإرادة وليس فى زعمه ذوقا صوفياً أو حساً ذاتياً أو الهاماً الاهياً ، أما الفنان الذى

المتأمل فهو بوصفه إنسانا أيضا يدرك أنه لا يعيش بمعزل عن الحياة فهو لا يمكنه أن ينصرف إلى المادة والعقل وحدهما ويدع الروح والوجدان جانباً ، فالأمر كما يدركه ليس صراعا بين المادة والروح أو بين العقل والوجدان ولا إنعزال جانب منهما عن الجانب الاخر . وهو كانسان يعرف أنه محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان ومحدود الكينونة من ناحية العقل والإدراك .

وهو كفنان تقى متأمل يصوغ صورة الوجود الداخلى والخارجى من الزاوية الصوفية حيث أيقن بعد إيمان أنه عرف حقيقة الوجود فى ذاتها لأنها توجد فى ذاته هو ، وأن الفن والتصوف يلتقيان عند أعماق النفس كما يلتقيان فى أعماق الوجود ذاته والتجربة الصوفية والتجربة التجريدية تنتهى إلى نوع خاص من المعرفة ، وعلى هذا نرى أن الفنان والصوفى كلاهما يدرك ويعرف ويتذوق الوجود كاملا وهو يعالج تجربة صوفية أو فنية . فالفن والتصوف صفاء ومشاهدة وهكذا تنتهى هذه التجربة الصوفية وهذه التجربة التشكيلية التجريدية إلى حقيقة واحدة وهى أن كل ذرة فى الوجود تلبس فى كل آن صورة جديدة تفيض عليها من مصدر الوجود ثم يخلعها فى اللحظة التالية إلى صورة أخرى ، وأن عالم الممكنات فى كل آن فى خلق جديد وان كنا لا ندرك ذلك لسرعة ما يتعاقب على العالم من صور الفناء والبقاء ، كما إننا لا ندرك من جذوه النار المتحركة فى حركة دائرية سريعة إلا دائرة متصلة من النار .

وبهذا نجد أن النسبية والذاتية تجمع بين التصوف والتجريد التشكيلي لأن الصورة التجريدية حالة رؤية وبصيرة وهى كشف عند الصوفى فى استغراق تأمله ، الفنان يحقق فى حالة وجوده الرؤية ويترجمها إلى صورة تشكيلية ، والصوفى يستطيع أن يقول فى حالة وجده وقد سئل عما يراه « المشهد هنـــاك لمن يستطيع أن يراه » أو على حد قول « برجسون » : « أن الرؤية مشاركة وجدانية ننتقل عن طريقها إلى جوهر الموضوع لكيما نندمج مع ما فى هذا الموضوع من إصالة فريدة أو بالتالى مع ما ليس فى الإمكان التعبير عنه .

وهذا الذى لا يمكن التعبير عنه يقول فيه العارف بالله سنائى « رجعت عن كل

ما قاله لأنه ليس فى اللفظ معنى ولا للمعنى لفظ » .

أما العارف بالله فريد الدين العطار فيقول « أن فى قلبى أسرارا لا يفضى بهـا لأنه لا يستطيع الابانة عنها . . . أو لا يستحسن أن يفشيها للناس » وينتهى من هذا ليقول « عالمك وعالمى وراء الادراك » .

أما مولانا جلال الدين الرومى فيذهب هذا الأمر بالهمس الصامت عنـــد ما يقول :

لو تسنى من صديق لى فم قلت ، كالناى حديثاً أكتم

وفى هذا المعنى يقول سلطان العاشقين الامام العارف بالله عمر بن الفارض :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم

ويذهب به الوجد فيقول :

ولولا شذاها ما اهتديت لحانها ولولا سناها ما تصورها الوهم

ولنرجع مرة أخرى إلى الامام الغزالى ليوضح لنا ما ليس فى الامكان التعبير عنه أنه قرب العالم الخارجى من العالم الباطنى والمادى من الروحى والجزئى من الكلى فى قوله « مثاله المرآة المجلوة إذ ليس لها لون فى نفسها بل لونها لون الحاضر فيها ، وكذلك الزجاجة فانها تحكى لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها وليس لها فى نفسها صورة بل صورتها قبول الصورة ، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان ويعبر عن هذه الحقيقة قول الشاعر :

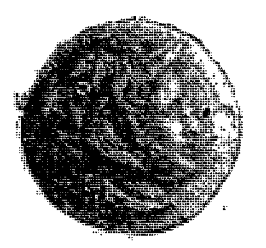
رق الزجاج ورافت الخمر وتشابها تشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قـدح ولا خمر

مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية

دراسات أثرية وتاريخية





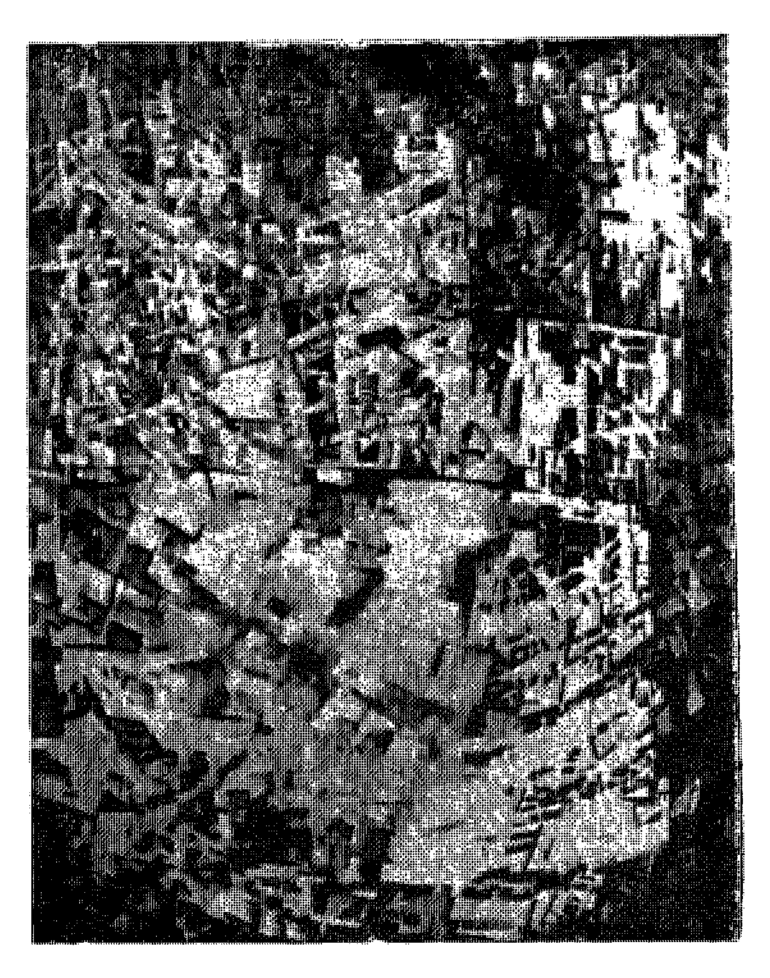
المحتويات :

١٩٦٩

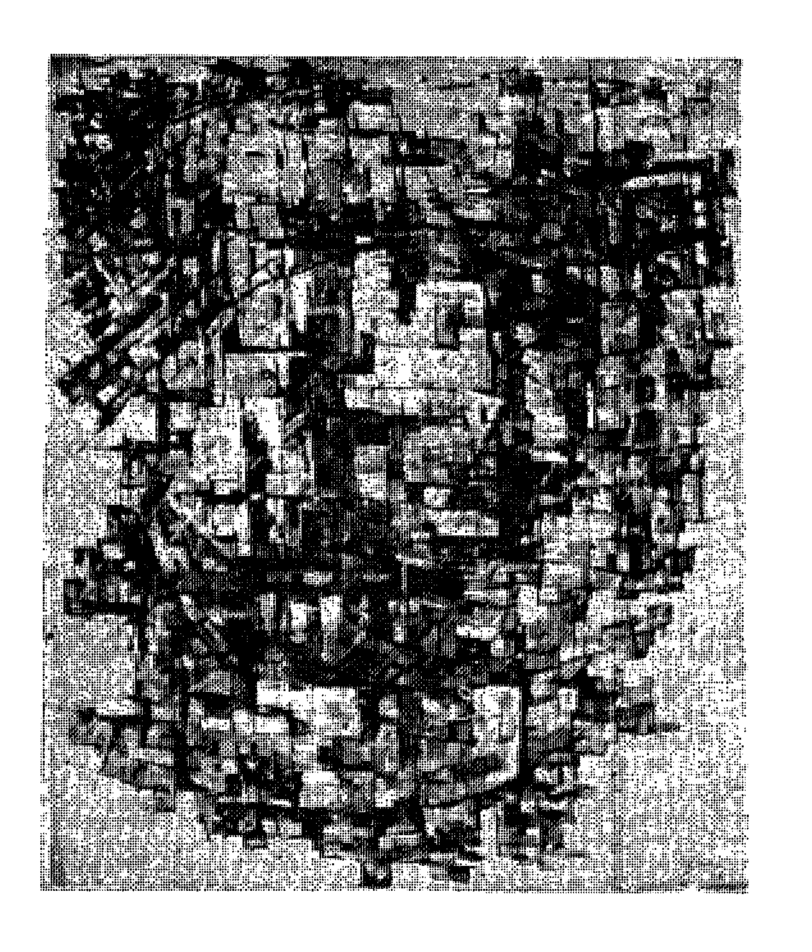
مطبعة اسكندرية - ش محرم بك ت : ٣٩٦١١



(١) تجريد (محمود حلمى)



(٢) تجـــريد (محمود حلمى)



(٣) تجـــريد (محمود حلمى)